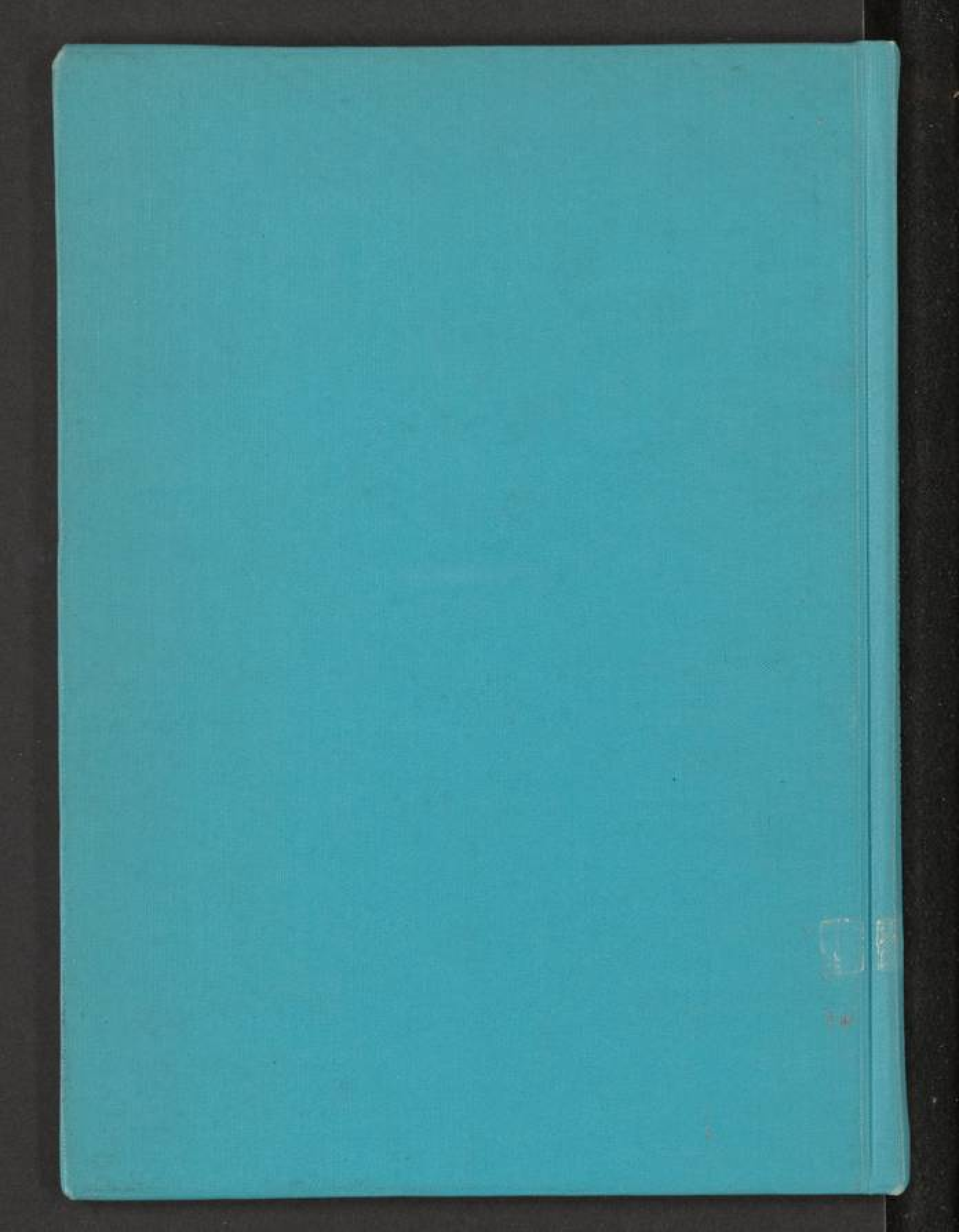


ابطال الوحدة السورية المصرية فى الحروب الصليبية

سلسلة من

التاريخ الحربي للأمة العربية

الجزء الأول

الطبعة الاولى

تأليف المقدم مفلح علي

مطبعة الحكومة بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى سيادة الرئيس جمال عبد الناصر بطل القومية العربية ومنقذهـا العظيم .

والى الذين اراقوا دماءهم وضحوا بارواحهم في سبيل تحرير الجزائر .

والى الذين كافحوا واستشهدوا في سبيل فلسطين .

والى الذين ناضلوا واضطهدوا وثابروا من اجل العرب في كل مكان اهدي هذا الكتاب .

المؤلف

المقدم مفلح علي



سيادة الرئيس جمال عبد الناصر
رئيس الجمهورية العربية المتحدة
بطل القومية العربية الملهم



سيادة المشير عبد الحكيم عامر

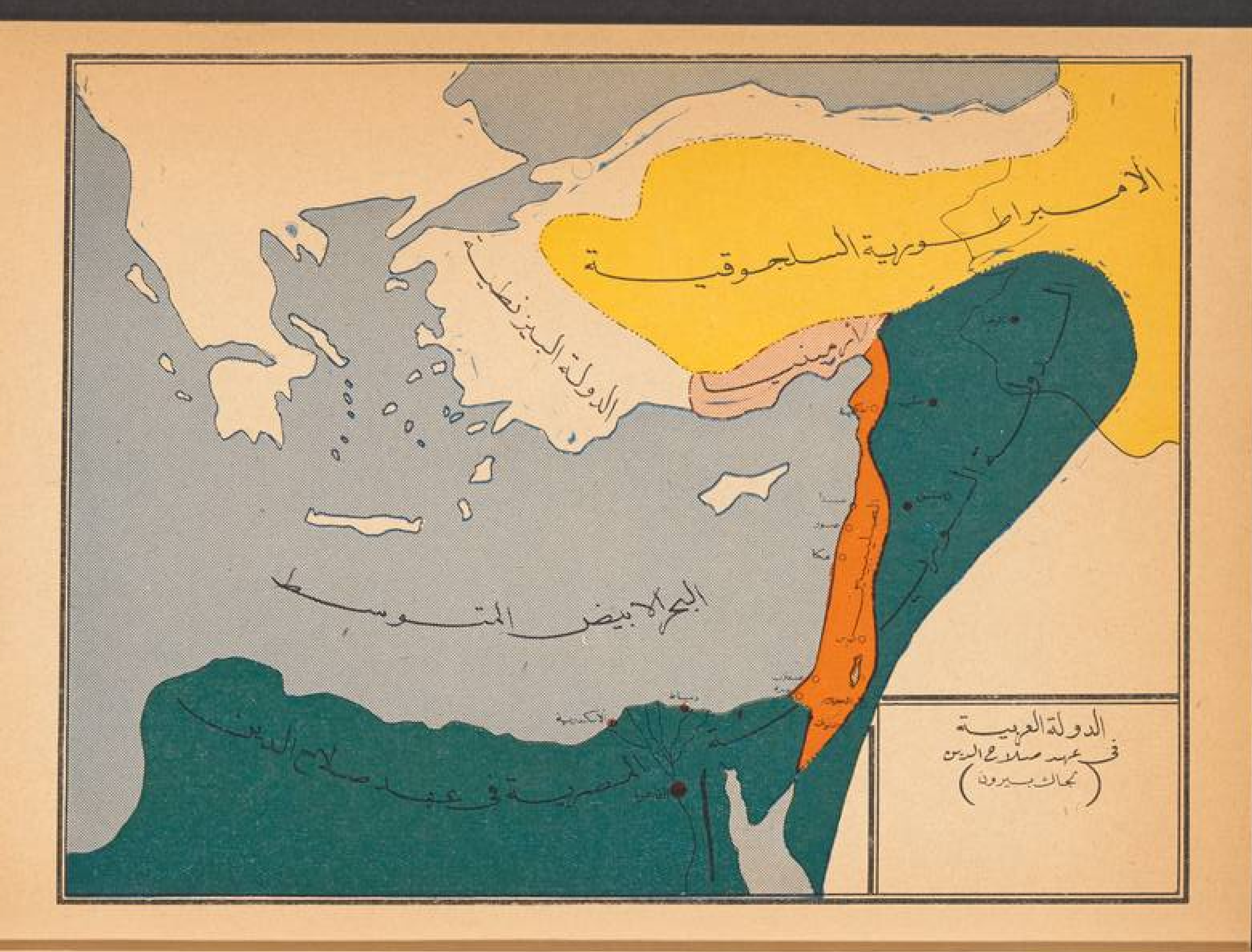
القائد العام لجيوش الجمهورية العربية المتحدة



سيادة عبد الحميد السراج

وزير الداخلية

الذي داس قناطير الذهب لاعلاء كرامة العرب


الامبراطورية السلجوقية
الدولة البيزنطية
البحر الابيض المتوسط
المصرية في عهد صلاح الدين
الدولة العربية
في عهد صلاح الدين



الدولة العربيّة
Schrader D Gallouédec
ك.م
٣٠٠٠
٢٠٠٠
١٠٠٠
٠
٦٣٢
٦٣٢ - ٦٦١
٦٦١ - ٧٥٠
٧٥٠
تركستان
ألمانيا
باريس
قرطبة
روما
بحر الروم
الدولة البيزنطية
بغداد
دمشق
القدس
القاهرة
اصفهان
السند
سمرقند
قبرص
جزيرة العرب
المدينة
مكة
عمان
حضرموت
اليمن
مصر والسودان

المراجع العربية

١ — الدكتور زكي محمد حسن — الفنون الايرانية في العصور الاسلامية
٢ — حافظ احمد حمدي — الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي
٣ — ياقوت الحموي — معجم البلدان
٤ — ابن العماد — شذرات الذهب
٥ — ابن خلقان — وفيات الأعيان
٦ — ابن الجوزي — مرآة الزمان
٧ — حسن الحبشي — نور الدين والصليبيون
٨ — ابن الأثير — الكامل
٩ — حسن الحبشي — الحروب الصليبية الأولى
١٠ — رفيق التميمي — الحروب الصليبية
١١ — ابن خلدون —
١٢ — ابن القلانسي
١٣ — ابن العديم — منتخبات من تاريخ حلب
١٤ — ابو المحاسن — النجوم الزاهرة
١٥ — صبح الأعشى —
١٦ — ابن ميسر — اخبار مصر
١٧ — ابي شامة — الروضتين
١٨ — اتابكة الموصل —
١٩ — المقدسي — تاريخ دمشق

المراجع الاجنبية

1) W. B. Stevenson — The Crusaders in the East

2) Harold Lamb, Ironmen and Saints.

3) Hitti, History of the Arabs.

4) Gibb, H.A.R. Damascus Chronicle of the Crusades.

5) Le Strang, Palestine under the Moslem.

6) Hayes L. Moon, Ancient E. Medical History

7) Gilluaume de Tyre : (G.T.) Historia.

8) Saladin and the Fall of the Kingdom. (London, 1803)

من خطاب سيادة الرئيس جمال عبد الناصر

رئيس الجمهورية العربية المتحدة

.... استمرت الحروب طوال ثمانين سنة للقضاء على القومية العربية . غزو مستمر وحملات مستمرة . حملات بقيادة ملك فرنسا وحملات بقيادة ملك بريطانيا ، حملات تنادي انها تغزو البلاد العربية باسم الدين ولكنها لن تكن تهدف الا الاستعمار . واستطاعوا في اول الامر ان يحتلوا فلسطين ويستولوا عليها ويحتلوا بيت المقدس ويفرقوا بين الامة العربية في مصر ، والامة العربية في الشرق العربي . وبعد ان استتب لهم الامر في فلسطين ارادوا ان يتقدموا نحو مصر . واستطاعوا ان يصلوا الى الشرقية وبلبيس وابواب القاهرة وكانت الجيوش المصرية في هذا الوقت تحارب وحدها وكان لابد من امر لانقاذ الامة العربية والوطن العربي من الغزو الاستعماري الذي قامت به بريطانيا وفرنسا تحت اسم الصليبية . وكان لا بد ان تتحد الامة العربية مرة اخرى وتنتصر . وكان التضامن والاتحاد بين سورية ومصر هو السبيل الوحيد للقضاء على هذه الحملات الصليبية ، وهو السبيل الوحيد لانقاذ القومية العربية . فأرسل نور الدين محمود السلطان السوري في هذا الوقت جيوشه الى مصر لتعاون مصر لطرد الغزاة الصليبيين واستطاعت جيوش مصر وسورية التي اتحدت ان تهزم الصليبيين وان تردهم عن ابواب القاهرة وان تردهم الى حدود فلسطين .

بعد هذه الحملات الصليبية بعد عشرين سنة من طرد الصليبيين من القاهرة هاجم الصليبيون فلسطين ايضا ، هاجموا سورية . كانت القوات الصليبية القوات الاستعمارية التي كانت تتخذ اسم الصليبية محتلة فلسطين . هاجموا مصر اولا . اتحدت سورية ومصر وزحفت جيوش سورية الى مصر وطردتهم بعد هذا هاجموا سورية . اتحدث سورية ومصر مرة اخرى تحت قيادة صلاح الدين . خرجت الجيوش المصرية من مصر لنجدة الشعب العربي في سورية وانتصر صلاح الدين على الصليبيين في معركة حطين ولم يكن هذا نجدة لسورية وحدها ولكن استطاعت الجيوش السورية المصرية ان تحرر فلسطين وتحرر القدس وتخرج الصليبيين .... الخ .

الخميس ١٩٥٨/٣/٢ الرئيس جمال عبد الناصر

مقدمة

جمال عبد الناصر ونور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي

لا شك في ان المشاكل القومية والسياسية التي تواجه الامة العربية في هذا العصر هي نفس المشاكل التي واجهها العرب ايام الفرنج في الحروب الصليبية وخرجوا منها ظافرين ٠

وهذه المشاكل هي الاستعمار ٠ وتحقيق الوحدة العربية وكارثـة فلسطين ٠ واذا صح القول بان التاريخ يعيد نفسه فان اعادة التاريخ نفسه لم تكن منطبقة ومتشابهة بالاعادة بقدر تطابقها وتشابهها في ايام الصليبيين وفي يومنا هـذا ٠ ذلك ان كارثة العرب في فلسطين ايـام الصليبيين وايام الصهاينة متشابهة في الاسباب والنتائج كما سيتضح ٠ لقد مزق الاستعمار السلجوقي ودسائس الفرس قبيل غزوة الصليبيين في ذلك العصر وحدة الامة العربية وأديا بها الى الانقسامات والفرقـة ثم الى كارثة فلسطين ٠

كما مزق الاستعمار ودسائسه واذنابه وحدة الامة العربية قبيل الغزو الصهيوني وأديا بها الى الانقسامات والفرقة ثم الى كارثة فلسطين في هذا العصر ايضا ٠

وقد ابتليت الامة العربية في ذلك الوقت بطبقة من الخلفاء والحكام الخاضعين للاستعمار السلجوقي ودعاة الفرس الموتورين كما ابتليت الامة العربية في هذا العصر بطبقة من الملوك والحكام الذين يعملون كأذناب ودعاة للمستعمر في هذا العصر تماما ٠

وقد خالف هؤلاء الملوك والحكام مبادىء الحرب ضد الصهاينة

التي تسببت عنها نكبة فلسطين في الجولة الاولى في هذا العصر ، كما خالف اولئك الخلفاء والحكام مبادىء الحرب ضد الصليبيين في الجولة الاولى وتسببت عنها نكبة فلسطين في ذلك العصر تماما كما سيتضح ايضا .

وكما ان الدول الغربية أبرمت حلف بغداد وسعت لجر باقي الدول العربية اليه لفك طوق الحصار الاقتصادي عن اسرائيل وفتح طريق بري لها مع اوروبا عن طريق تركيا واقامة مجالات اقتصادية وسياسية وحيوية لاسرائيل في هذا العصر ، كذلك أبرم الصليبيون من قبل حلفاً مع الامبراطورية البيزنطية (١) لادامة الاتصال البري بين الدولة الصليبية وبين اوروبا عن طريق بيزنطة وفك طور الحصار الاقتصادي الذي ضربه العرب حول الدولة الصليبية في ذلك الوقت ايضا .

فكيف عالج العرب هذه المشاكل في ذلك الزمن ؟ وهل بدأوا بالتخلص من الاستعمار وأذنابه قبل كل شيء ياترى ؟ او بدأوا بتحقيق الوحدة العربية وتساهلوا مع المستعمرين وعملائهم ؟

وكما ان الشعوب العربية في ذلك الوقت كافحت وصبرت حوالي ربع قرن من الزمن بعد كارثة فلسطين الى ان هيأ الله لها زعماء مخلصين تولوا قيادتها وزمامها امثال عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين الايوبي الذين اتصف كل واحدا منهم بمزايا سياسية او اجتماعية او عسكرية نادرة خدمت قضية العرب .

كذلك كافحت الشعوب العربية وصبرت بعد كارثة فلسطين مدة من الزمن الى ان هيأ الله لها في هذا العصر بطل القومية العربية وزعيمها الملهم جمال عبد الناصر .

اما معجزة بطلنا جمال وعبقريته هي ان العناية حبته بمزايا الابطال

---

(١) كانت الامبراطورية البيزنطية تقع في البلاد التركية الحالية (انظر المخطط)

الثلاثة السابقين جميعا دفعة واحدة : العسكرية والسياسية والاجتماعية. وحين نقرأ عن شخصية عماد الدين او نور الدين او صلاح الدين الايوبي في هذا الكتاب تتوارد الى أذهاننا شخصية جمال عبد الناصر وخصاله وسجاياه الفذة النادرة دوماً .

اما المزية الثانية التي حبت العناية بها بطلنا جمال هي انه عربي اصيل من قبيلة بني مر .

وكما ان الامة العربية في هذا العصر انجبت من الرجال العظام الذين اتصفوا بالبطولة والتضحية الخارقة وتقدموا الصفوف ليثأروا للقومية العربية ويعملوا على اعلاء شأنها كسيادة المشير عبد الحكيم عامر ورفاقه الميامين في الاقليم الجنوبي .

والذين داسوا قناطير الذهب واموال الدنيا باقدامهم ليشتروا كرامة العرب وحريتهم ووحدتهم ومجدهم كسيادة عبد الحميد السراج . والذين تقدموا لتحقيق الوحدة بايمان عميق وشجاعة كسيادة عفيف البزري ورفاقه الميامين في الاقليم الشمالي .

كذلك انجبت الامة العربية من الرجال العظام في ذلك الوقت الذين اتصفوا بالبطولة والتضحية في سبيل تحرير العرب وتوحيدهم ومجدهم أمثال محمد بن عيسى السفار واسد الدين ونجم الدين وغيرهم .

المؤلف

● ● ●

الفصل الأول

شخصية نور الدين محمود

بطل الوحدة السورية المصرية في الحروب الصليبية

قبل البدء بهذا البحث دعنا نقترب من نور الدين محمود بطل الوحدة العربية في ذلك الحين لنتعرف عليه من قريب وننظر اليه عن كثب وذلك لكي ندرس شخصية هذا الزعيم الكبير اولا ونفهم نفسيته ونستوعب فلسفته وعبقريته . ذلك انّ دراسة شخصية نور الدين محمود تساعدنا جدا على تفهم عقلية الامة العربية وادراك نزعاتها الخالدة وطباعها الموروثة واسلوبها في اختيار زعمائها وقادتها ، ووجهة نظرها في الانتقاء. ومن جهة اخرى فان هذه الدراسة تساعدنا جدا في التعرف على الملامح الرئيسية البارزة لشخصية الزعيم والقائد الذي يمكننا الجزم بان العرب يرتاحون اليه حتما ويفتشون عنه دوما .

يقول علم النفس ان شخصية اي انسان تتعين من معرفة اخلاقه وان معرفة اخلاق الانسان تتعين من معرفة سلوكه وميوله ونزعاته وتصرفاته. وقد ترك لنا المؤرخون نبذا عن سلوك وميول ونزعات نور الدين محمود موزعة في كتب التاريخ (١) وقد تعلق العرب بشخصية نور الدين وتفانوا في سبيله بأموالهم وارواحهم نظرا لنزعاته وميوله وتصرفاته التالية:

١ — حزمه في قتال الفرنج .

٢ — انكاره لذاته وبعده عن الانانية الفردية .

٣ — عدله واستقامته .

---

(1) The Land of the Eastern Caliphat — Cambridge 1930

اتابكة الموصل ص ٣١

ابن الاثير ج ١١ ص ١٥١

حزمه في قتال الفرنج

يقول ابن العماد الذي كتب عنه انه في الليلة التي قتل فيها والد نور الدين محمود على يد الحشاشين ، أخذ نور الدين خاتم أبيه من اصبعه وهو ميت وجمع جنوده وركب من ساعته الى ضواحي حلب وهاجم الفرنج ودحرهم عنها ، وفي سابع يوم من استقراره في الحكم بلغه ان (بيمونت صاحب انطاكية) خرج قاصدا حلب فأغار على ضواحيها وقتل وسبى خلقا عظيما فتوجه اليه نور الدين بجيشه فورا ودحر قواته وقتله واسترجع عدة مدن منه ، ولا ريب بان دفاع نور الدين هذا عن البلاد العربية في الايام الاولى من حكمه كان الدعامة الراسخة التي حببته الى نفوس العرب فوثقوا به والتفوا حوله . وقال نور الدين عن نفسه لو كان معي الف جندي فلا ابالي بالفرنج قلوا او كثروا « والله لا استظل بجدار حتى آخذ ثأر المسلمين » . وجرى في مجلسه مرة ذكر دمشق ورقة هوائها وجمال ازهارها فقال نور الدين : « ان حبي لقتال الفرنج يسليني عنها » ، واصيب احد اخوة نور الدين مرة بسهم ذهب باحدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له : « لو علمت بمبلغ الشرف الذي أعد لك لتمنيت ان تذهب عينك الاخرى » . وقرىء عليه مرة حديث كانت له به بطولة وذلك حين نزل الافرنج على دمياط في مصر وطلب منه بعض طلبة الحديث ان يبتسم على ما عرف من عادة اهل الحديث في ذلك العصر فغضب نور الدين وقال : « اني لأستحي من الله ان يراني مبتسما والعرب يحاصرهم الافرنج » . وقد أحب العرب نور الدين حبا عظيما وتعلقوا به وتفانوا في محبته حتى راحوا يفدونه بالارواح .

فقد حدث مرة ان الافرنج فاجأوا العرب من خلف جبل فانهزم العرب أمامهم ، ووضع الافرنج السيف فيهم وأكثروا القتل ثم قصدوا

خيمة نور الدين فخرج عاجلا وركب فرسا وكان في رجل الفرس (شبحة) فعاد احد جنوده وضحى بحياته وقطع (الشبحة) فنجا نور الدين وقتل الجندي .

وكان من شدة تعلق العامة به انه كان اذا ركب الى الحرب ومر بشوارع دمشق التف العامة حول فرسه يتمرغون بركابه ويتلمسون ثيابه ويبكون .

هذه هي الدعامة الرئيسية الاولى التي من اجلها احب العرب نور الدين محمود وتعلقوا به .

انكاره لذاته(١)

روى ابن العماد ان نور الدين محمود مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده واموالها كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا فيما يخصه من ملك كان قد اشتراه من سهمه في غنائم الاعداء .

وكان نور الدين يصرف من المال في كل شهر ما يفي لسد الكفاف من حاجته فقط وما زاد معه وزعه على جنده وقد حسب ما تصدق به نور الدين قبل وفاته فزاد على (٣٠) الف دينار .

وروى ابن العماد عن عدل نور الدين ما يلي : كان نور الدين بدمشق يلعب الكرة ليروض خيله ويمرنها فرأى رجلا يحدث شرطيا وهو يشير بيده اليه فأرسل اليه نور الدين يسأله عن حاله فقال الرجل: « لي معك يانور الدين حق » وهذا الغلام الذي اكلمه هو من الشرطة فترجل نور الدين عن فرسه وسار مع الشرطي والرجل الى القاضي كمال الدين الشهرزوري وقال نور الدين للقاضي : انني محاكم فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري من عامة الناس . ولما بدأت المحاكمة ساوى

---

(١) ابن العماد ج ٤ ص ٦١ – ٩٠ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٥٤ – ١٢/٨٢

القاضي بينه وبين خصمه وحاكمه فلم يثبت على نور الدين حق فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا لا . قال اشهدوا انني وهبت للرجل هذا الملك الذي حاكمني عليه وهو له دوني فقد كنت اعلم انه لا حق له عندي وانما حضرت معه لئلا يظن اني قد ظلمته فحيث ظهر ان الحق لي وهبته له . وكان نور الدين لايضع على بابه حاجبا او بوابا وذلك لكي يصل اليه الضعيف والقوي والفقير والغني على السواء .

نور الدين يعدل بعد موته

ومن اعجب ما ورد عن نور الدين انه عدل بعد موته وذلك ان رجلا مسيحيا استوطن دمشق ، لما رأى من عدل نور الدين ، فلما توفي نور الدين اعتدى بعض جنود صلاح الدين على هذا الرجل فشكاهم فلم ينصف ، فنزل هذا الرجل من قلعة دمشق وهو يستغيث ويبكي ويشق ثوبه وهو يقول : « يانور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا » . « أين عدلك يانور الدين » وقصد الرجل قبر نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي فوصل خبره الى صلاح الدين الايوبي فقيل له احفظ البلد والرعية والا خرج الحكم من يدك فأرسل صلاح الدين الى ذلك الرجل وهو مكب على قبر نور الدين والناس حوله يبكون .

ولما بلغ صلاح الدين انصفه وطيب قلبه ولكن الرجل بكى اشد من الاول ، فقال له صلاح الدين ما يبكيك قال ابكي على سلطان عدل فينا

بعد موته فقال صلاح الدين هذا والله هو الحق وكل ما ترى فينا من عدل فمنه تعلمنا (١) .

هذه هي شخصية نور الدين محمود وهذه هي عبقريته تلك العبقرية التي حررت العرب من الاستعمار ومهدت لطرد الفرنج فخلدها التاريخ مدى الحياة ، ان شخصية نور الدين محمود تذكر العرب دوما بشخصية عمر بن الخطاب التي يحن اليها العرب منذ بداية التاريخ الى يومنا هذا.

وكلما جاد الزمن بواحد منها نرى الامة العربية تهب لا لتعيد مجد التاريخ بل تعيد صياغة التاريخ ايضا .

(١) شذرات الذهب ج ٤ ص ٦١ ــ ٧٠ ، ابن خلكان (وفيات الاعيان) ج ٢ ص ١٨٢

الفصل الثاني

احوال الامة العربية السياسية والعسكرية اثناء غزو الصليبيين

كانت الامة العربية في اواخر القرن الحادي عشر اي قبيل مهاجمة الفرنج لفلسطين في وضع سياسي وعسكري أسوأ بكثير جدا من وضعها السياسي والعسكري حين طالب الصهاينة بانشاء وطن قومي لهم فيها . وأسوأ بكثير جدا من وضعها بعد ان اعلن الصهاينة قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨

كانت الامة العربية في ذلك التاريخ منقسمة الى معسكرين كبيرين سياسيا وعسكريا (١) المعسكر الاول هو الدولة العباسية المنكوبة بالاستعمار السلجوقي ويشتمل على العراق والحجاز وبلاد الشام (ومنها فلسطين) وقد استبد الاستعمار السلجوقي بهذا المعسكر ، ذلك منذ ان استنجد الخليفة العباسي القائم بأمر الله بزعيم السلاجقة (طغرل بك) عام ١٠٥٥م لانقاذه من الاستعمار البويهي الذي كان قد استبد بالخلافة العباسية من قبل فكان مصير القائم بأمر الله ومصير الدولة العباسية الخلاص من الاستعمار البويهي للخضوع للاستعمار السلجوقي وبذلك تحولت الدولة العباسية الى مستعمرة سلجوقية كان الخليفة عبارة عن موظف بسيط لدى امراء السلاجقة يتلقى توجيهاته وسياسته منهم .

اما المعسكر الثاني فهو الدولة الفاطمية ويشتمل على مصر والمغرب فقد عصف المعسكر انحطاط الحكام وفساد الحكم (٢) .

وكانت تعصف بالمعسكرين معازعات فارسية سامة مريبة تبثها جمعيات فارسية (كالقرامطة والراوندية والخرمية والمزدكية) في المعسكر الاول،

(١) شذرات الذهب ج ٤ ص ٦١ — ٧٠

(٢) راجع كتاب الحاكم بأمر الله والفصل الاخير من هذا الكتاب

(والباطنية والحشاشين ودور الحكمة في المعسكر الثاني) (١) وكانت هذه الجمعيات السرية الفارسية ترجع في اصلها الى (ميمون بن ديصان) الذي كان مولى لجعفر الصادق عام ١٤٥ في اواخر ايام المنصور . وهو فارسي مجوسي يضطرم بغضا وحقدا على العرب . وانتحل ابنه عبد الله لنفسه نسب الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق لترويج دعوته. وكانت هذه الجمعيات ترمي الى غرض واحد في المعسكرين هو تشتيت شمل العرب وهدم صرحهم وتفريق وحدتهم كي يسهل على الفرس استعادة مجدهم .

وكان دعاة الفرس واذنابهم والمستعمرون السلاجقة في بغداد يحرضون الخلفاء العباسيين الخاضعين الى نفوذهم للمجاهرة بالعداء للفاطميين وليس أدل على ذلك من المحضر الذي كتبه بلاط بغداد في عهد القادر بالله موقعا من كبار الفقهاء والقضاة في بغداد يتضمن الطعن في نسب الفاطميين وانهم ديصانية ينتمون الى ميمون بن ديصان الفارسي المجوسي الوارد ذكره (٢) .

وفي عهد ملك شاه السلجوقي الذي توفي عام ١٠٩٢م اي قبل هجوم الفرنج على فلسطين بخمس سنوات امتدت حدود المستعمرة السلجوقية التي قامت في قلب الدولة العباسية من خط يبدأ من أواسط الاناضول شمال حلب والاسكندرونة الى ساحل البحر ثم ينحدر الخط بمحاذاة سواحل سوريا ولبنان وفلسطين الى ميناء عسقلان حيث يتجه الى الداخل الى مدينة الرملة وعمان وشرق الاردن . ثم يتجه الخط الى مدينة البصرة في العراق (٣) .

---

(١) الشرق الاسلامي لحافظ احمد حمدي ص ١٨ — ٤٨
(٢) تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ١٨ — ٤٨
(٣) انظر خريطة الاستعمار السلجوقي في الدولة العباسية لجاكبيرون

وقد وقعت نكبة فلسطين في هذه المستعمرة .

ولم تقف نكبة الدولة العباسية عند الاستعمار السلجوقي فقط ، فبعد وفاة ملك شاه السلجوقي عام ١٠٩٢م اقتسم ورثته الارث واخذوا يتنازعون ويتحاربون فيما بينهم فكانت هذه المستعمرة عند قدوم الفرنج ومحاصرتهم لانطاكية عام ١٠٩٨ مقسمة الى دويلات وامارات صغيرة تنازع بعضها بعضا مما اطمع الفرنج في الاستيلاء عليها جميعا . وقد كانت الدولة العباسية (المستعمرة السلجوقية) حين وفد الفرنج مقسمة الى امارات واقطاعيات يحكمها امراء مستعمرون سلاجقة كما يلي :

دولة القدس يحكمها (بنو تتش) ، دولة دمشق يحكمها (دقاق بن تتش) ، دولة حمص يحكمها (جناح الدولة) ، دولة حلب يحكمها (الامير رضوان) ، دولة الموصل يحكمها (سنكراتا بك) ، دولة انطاكية يحكمها (باغيسيان) وهكذا (١) وبعبارة أخرى كانت الجيوش العباسية جيوش عربية بقيادة مستعمرين سلاجقة .

وكان لكل دولة او امارة من هذه الدول والاقطاعيات حكومتها وجيشها وقلاعها المستقلة وبذلك فان الجنود العرب في هذه الاقطاعيات الذين اوكل اليهم صد زحف الفرنج كانوا يأتمرون بأمرة أمراء السلاجقة المستعمرين الذين لا تهمهم سلامة الوطن العربي او مصلحته في شيء (٢)

وذكر حسن حبشي في كتابه الحرب الصليبية الاولى (صفحة ٥٦) ان الفاطميين ارسلوا وفدا الى الفرنج حين وصولهم الى مدينة انطاكية للتحالف معهم نكاية بالسلاجقة . وقد كشف هذا الوفد للفرنج حالة العداء الشديد بين الفاطميين والعباسيين (الخاضعين للسلاجقة) حتى ان

---

(١) الحرب الصليبية الاولى ص ٢٨ لحسن حبشي
(٢) بلغت حملة الصليبيين الاولى ١٠٠ الف جندي خيال

الوفد الفاطمي كما يقول الدكتور حسن حبشي (سر بمشاهدة رؤوس قتلى السلاجقة التي طرحها الفرنج امام الوفد الفاطمي) .

وقد اراد الفرنج ان يضربوا قوى اعدائهم بعضها ببعض فأخبروا الوفد الفاطمي انهم جاءوا الى الشرق لاسترجاع انطاكية فقط التي استولى عليها السلاجقة من البيزنطيين عام ١٠٧١ كما ذكرنا (١) . واخبروا السلاجقة انهم جاءوا للحج فقط ، وبذلك خدع الفرنج الفاطميين والسلاجقة معا بمطامعهم المتواضعة هذه .

اما الفاطميين فقد قرروا ان يستغلوا فرصة مهاجمة الفرنج لاملاك الدولة العباسية المنكوبة بالاستعمار السلجوقي لانقاذ القدس والرملة من استعمارهم التي انتزعها السلاجقة منهم عام ١٠٧١ كما تقدم (٢) . وعلى هذا الاساس قام الفاطميون بمهاجمة السلاجقة واسترجعوا القدس والرملة منهم وذلك في الوقت الذي كان الفرنج فيه يحاصرون مدينة انطاكية كما ذكرنا (٣) .

اما غاية الفرنج من الاتفاق مع الفاطميين فهي عزل الجيش الفاطمي عن مسرح الحرب ريثما يستولون على انطاكية من السلاجقة ، ثم مهاجمة الفاطميين وانتزاع القدس منهم والاستيلاء على فلسطين بسهولة ، وبهذه الخطة يتغلبون على الفاطميين والعباسيين (السلاجقة) الواحد بعد الآخر وهذا ما حدث فعلا .

اما أثر اعلان الفرنج لمطالبهم المتواضعة على السلاجقة فقد جعل الفتور يدب بين امرائهم في سورية والعراق فلم يهب منهم لنجدة انطاكية اثناء حصار الفرنج لها سوى امير حلب وامير حمص وامير

(١) الحرب الصليبية الاولى حسن حسني ص ٥٤
(٢) الشرق الاسلامي لحافظ احمد حمدي ص ٣٥ ، المقريزي ج ١ ص ٢٣
(٣) استرجع الفاطميون القدس من السلاجقة في آب عام ١٠٩٨ م حينما كان الصليبيون يهاجمون انطاكية ، راجع الحرب الصليبية الاولى لحسن حبشي ص ٢٨ ، ابن الاثير الطبعة الاوربية ج ١ ص ١٩٢

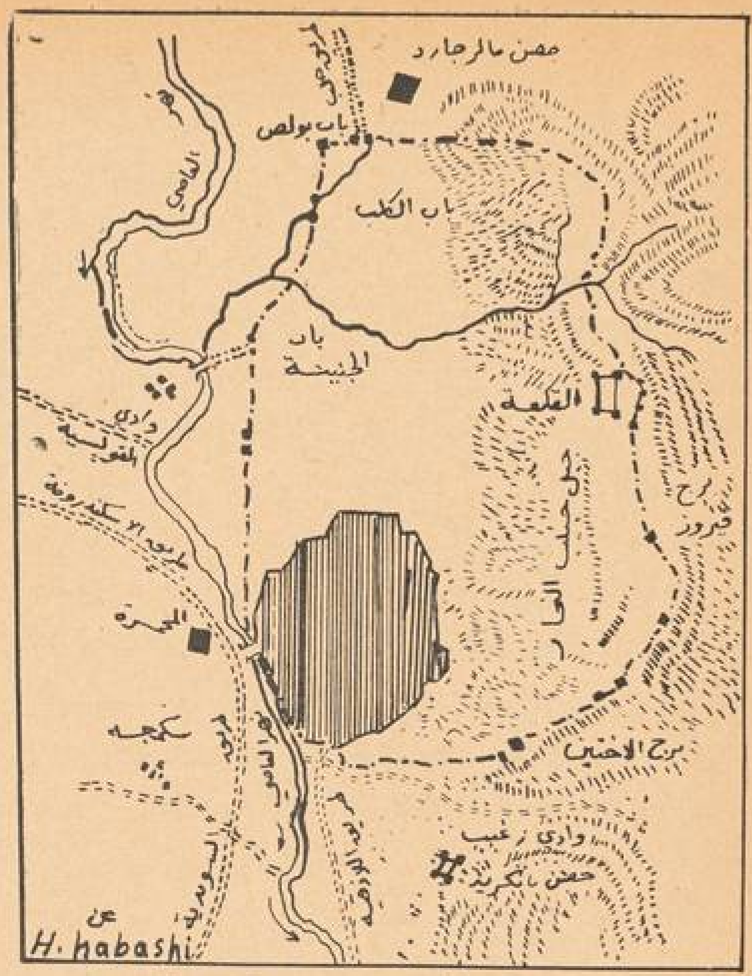
دمشق فقط وكلهم سلاجقة (١). كما هبت نجدة عباسية (بامرة السلاجقة) تحركت من الموصل بقيادة (كاربوغا) السلجوقي ولكنها وصلت انطاكية بعد فوات الفرصة . ومما ساعد الفرنج على التغلب على امراء السلاجقة المذكورين بسهولة ان كل امير منهم دخل المعركة بمفرده فسهل على الفرنج القضاء عليهم جميعا الواحد بعد الآخر . وهكذا خسر العرب انطاكية لان قيادتهم بيد المستعمر .

ففي كانون الاول عام ١٠٩٨ وصل امير دمشق لوحده فتغلب عليه الفرنج بسهولة (٢) وفي شباط من تلك السنة وصل امير حلب وحده فتغلب عليه الفرنج بسهولة ايضا . (ان أرمن حلب اخبروا الفرنج بهذه الحركة فنصب هؤلاء كمينا بين بحيرة العمق ونهر العاصي ومزقوا القوات الحلبية شر ممزق) .

اما الجيش العباسي الذي أوفد من الموصل لفك الحصار عن انطاكية فبدل ان يتجه هذا الجيش رأسا الى انطاكية ليجتمع مع باقي الجيوش وشرعوا جميعا بقتال الفرنج فقد عرج قائده (كاربوغا) الى مدينة الرها وقضى فيها عدة اسابيع . وهذه المدة اعطت الفرنج فرصة كافية لتلافي الخطر الذي سيحدق بهم . فقد ادرك الفرنج ان وصول هذا الجيش قبل دخولهم انطاكية واحتلالها معناه حصر قواتهم بين قوات امير انطاكية في داخل المدينة وبين هذا الجيش خارجها وبذلك يقضى عليهم .

ولتلافي هذا المأزق قرر الفرنج الاستيلاء على انطاكية قبل وصول الجيش الموصلي المذكور وذلك للاستفادة من قلعة المدينة وحصونها وقتال جيش الموصل من داخل الاسوار (٣) وعلى هذا الاساس قام الافرنج يوم

(١) الحرب الصليبية الاولى لحسن حبشي ص ٤٩
(٢) ابن القلانسي ص ١٣٤
(٣) منتخبات من تاريخ حلب لابن العديم ص ٥٧٩



خريطة تخطيطية لأنطاكية

زمن الصليبيين ١٠٩٨م

٣ تموز عام ١٠٩٨ بهجوم عام على انطاكية ودخلوها (١) بعد ان اغروا احد أمراء الارمن على الخيانة فسلمهم احد ابراج السور الهامة التي تحيط بالمدينة فدخل الفرنج انطاكية وذبحوا سكانها ومن جملتهم ياغسيان نفسه (٢) .

وبعد خمسة ايام فقط من سقوط المدينة في يوم ٨ تموز ١٠٩٨ وصل جيش الموصل الى انطاكية متأخرا وحاصر الفرنج داخل المدينة وانضمت اليه فلول جيش الشام وحلب وحماه . وقد اشتد الحصار على الفرنج حتى اكلوا الجلود ولحوم القتلى واوشكوا على التسليم لولا قصة الحربة المقدسة التي طعن بها سيدنا المسيح التي عثر عليها بطرس الناسك مدفونة تحت جدار الكنيسة ، فارتفعت معنويات الفرنج واستمروا في المقاومة .

أما امراء السلاجقة (العباسيين) فاختلفوا فيما بينهم في هذا الظرف العصيب فقد اشترط قائد جيش الموصل ضم انطاكية اليه قبل ان يزج جيشه في الحصار (اي بيع جلد الدب قبل صيده) فأنكر عليه ابن امير انطاكية هذا الطلب (٣) .

ويذكر ابو المحاسن في كتابه « النجوم الزاهرة » ان امراء السلاجقة تبادلوا السباب والشتائم فيما بينهم فانتهز الفرنج هذه الفرقة وخرجو يوم ٢٢ تموز من باب سور المدينة وهاجموا الجيش الموصلي ومزقوه شر ممزق ايضا وذلك ان كاربوغا قائد الجيش الموصلي رفض قتال الفرنج اولاً بأول اثناء خروجهم من باب السور وتركهم

---

(١) النجوم الزاهرة لابي المحاسن ج ٥ ص ١٤٦ ، ابن قلانس ذيل ص ١٣٥ ، منتخبات من تاريخ حلب لابن العديم ص ٥٨٠.

(٢) سلمهم برج الاختين انظر (خريطة انطاكية زمن الصليبيين) عن كتاب الحرب الصليبية الاولى لحسن حبشي ص ٦٥

(٣) الحرب الصليبية الاولى حسن حبشي ص ٦٠

يخرجون الى ان اكتملوا جميعا (١) ويقول المؤرخ الفرنسي (فوشيه) « Foucher » في كتابه الحرب الصليبية صفحة ٣٩٦ ان باقي امراء السلاجقة بقوا على الحياد مكتوفي الايدي اثناء نشوب المعركة مع جيش الموصل دون ان يهبوا لنجدته كما حدث للجيش المصري في الفالوجا تماما (٢) • وبعد سقوط انطاكية تقدم الفرنج في البلاد العربية دون اية مقاومة او عناء حتى وصلوا القدس فانقضوا على الفاطميين واستولوا على القدس بسهولة تامة واحتلوا فلسطين بأسرها (٣) ، كما احتلها اليهود في الجولة الاولى في هذا العصر تماما •

وهكذا خسر العرب الجولة الاولى في ذلك العصر كما خسروها في هذا العصر تماما لان القيادة كانت بيد المستعمر •

---

(١) منتخبات من تاريخ حلب لابن العديم ص ٥٨٣ ، ابن الاثير الكامل ص ١٩٥

(٢) راجع المصادر العسكرية السورية والمصرية بهذا العدد

(٣) راجع وصف دخول الصليبيين لمدينة القدس في الصفحة التالية

وصف دخول الفرنج مدينة القدس(١)

وصف المؤرخ الصليبي (فورشيه دي شارتر Foucher de charter) (وريموند داكلير Raimond d'quiler) (٢) دخول لصليبيين لمدينة القدس بما يلي :

(.. في ٨تموز سنة ١٠٩٩ اشترك الصليبيون كلهم بمهرجان كبير ترأسه الاساقفة وسائر رجال الدين . واقيم هـذا المهرجان بناء على ادعاء احد الكهنة بأن النائب البابوي المترفي (اديمار) جاءه في المنام وامره باقامته . وبعد الانتهاء من المهرجان تصافح الصليبيون وتصالحوا وتسامحوا إبتهاجا بعظمة المدينة المقدسة وقاموا بهجوم عام دام يوما ونصف يوم سقطت المدينة في ايديهم وتمكن رجال (غود فروا دي بويون) من ركز راية اميرهم على سور المدينة المقدسة قبل غيرهم) . (وحين سقطت المدينة اخذ المسلمون يفرون من الشوارع الضيقةولجأت طائفة كبيرة منهم الى هيكل سليمان وهو المكانالذي اتفقوا مع(طنكرد) على ان يلجؤوا اليه ووعدهم بالدفاع عنهم . وكان طنكرد قد سلمهم رايته ليركزوها هنـاك دلالة على حمايته لهم . وغص المكـان بألوف اللاجئين من المسلمين حتى ضاق بهم فصعد فريق منهم على السطح . وحين احتل الصليبيون المدينة انقضوا على المسلمين واخذوا يذبحونهم دون ان ينظروا الى راية طنكرد والى ما كانت تحمله تلك الرايـة من

---

(1) Raimond d'Agiles Historia Francorum, p. 245

(٢) راجع ياقوت الحموي ج ٨ ص ٩٦ ، ابن قلانس (تاريخ دمشق) ذيل ص ١٣٦ ، الجوزي ص ٥١٩ ، ابن العديم (منتخبـات من تاريـخ حلب) ص ٥٨٦ ، الحروب الصليبيـة لرفيق التميمي ص ٥٤ ـ ٦٠ ، ابو الفداء ص ٤

الوعود فسالت الدماء في المعبد وملأته حتى بلغت ما يوازي اليد ارتفاعا . وقد ذبح ايضا المسلمون اللاجئون الى السطح ثم رموا الى اسفل البناء فكانت جماجمهم تنفلق وعظامهم تتهشم . ولجأ المسلمون الى جامع عمر رجالا ونساء واطفالا وهم بحالة جزع وفزع لا مزيد عليها ازاء الدماء التي ملأت المسجد وارتفعت حتى ركبتي الفارس الصليبي الى ان خلت المدينة من سكانها المسلمين رجالا ونساءواطفالا).

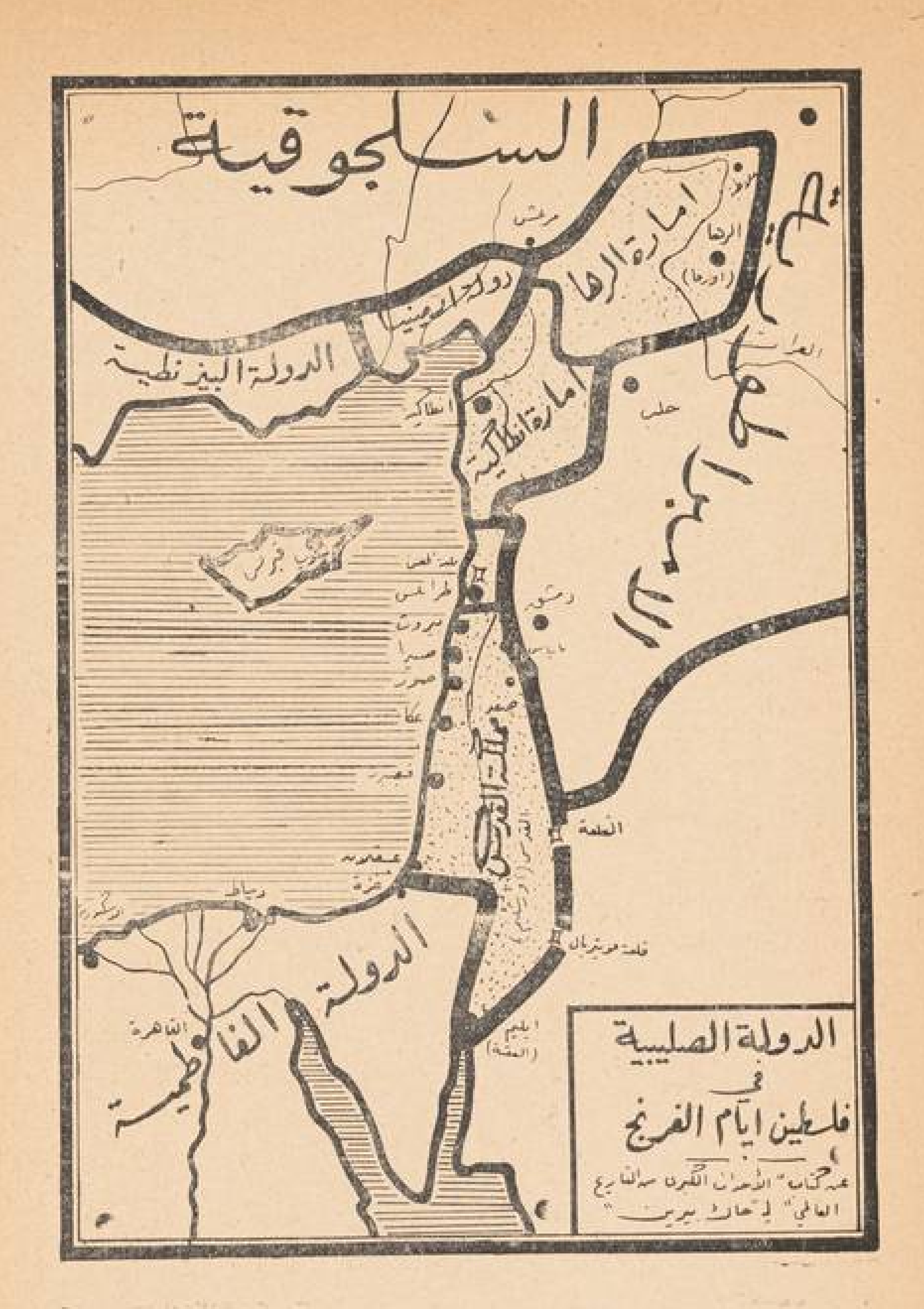
(.. وكانت الشوارع تضيق بجماجم الموتى واذرعهم وارجلهم المقطعة وكان الصليبيون يتفننون في تعذيب واماتة هؤلاء المساكين وبعد سقوط القدس قلع (فروا دي بويون) عيون عشرين فارسا مسلما مخالفا بذلك سنة الفروسية . ويقول ريموند داكيلر وهو مؤرخ صليبي في ذلك العصر . لقد عذب الكفرة وشويت اجسادهم على نار حامية . وقد خطر على بال الصليبيين احتمال ابتلاع المسلمين للاموال فأخذوا يبقرون بطونهم ليخرجوا تلك الاموال المزعومة منها ثم رأوا ان بقر بطن الواحد تلو الآخر عملية طويلة فأخذوا يجعلون من الاسرى اكواما مكدسة ثم يحرقونها وينتظرون انتهاء عمل النار بفارغ الصبر ليبدوأ بالتحري عن النقود الذهبية بين الجثث المحترقة. وبعد الذبح والتعذيب بدأت اعمال النهب فأخذ الصليبيون بمهاجمة البيوت وايديهم لا تزال ملطخة بالدماء وهكذا انقلب فريق كبير من فقراء الصليبيين اغنياء) . (وبعد الانتهاء من قتل المسلمين واحراقهم أثر تعذيبهم هرعوا الى كنيسة القيامة واخذوا يتعبدون ... الخ ، ويصف ابن الاثير سقوط القدس بما يلي : « ... فلما وصلوا الى المدينة حصروها نيفا واربعين يوما ونصبوا عليها برجين احدهما من ناحية صهيون فأحرقه المسلمون فأتاهم المستغيث بأن المدينة قد اخذت من الجانب الآخر . فركب الناس السيف ولبث الفرنج في البلدة يقتلون المسلمين واحتمى جماعة من

المسلمين بمحراب داوود فاعتصموا به وقاتلوا ثلاثة ايام فبذل لهم الفرنج الامان فسلموه اليهم وقتل الفرنج في المسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الفا منهم جماعة كبيرة من ائمة المسلمين وعلمائهم ممن فارق الاوطان وجاور المعبد الشريف . واخذ الفرنج من الصخرة نيفا واربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل بثلاثة آلاف وستمائة ذرهم واخذوا تنورا من الفضة وزنه اربعون رطلا بالشامي واخذوا من القناديل الصفراء مائة وخمسين قنديلا ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا مالا يقع عليه احصاء الخ ...

في أثناء فتح بيت المقدس واقتراف الاعمال الوحشية التي حلت بالعرب امكن لفريق من اهل القدس ان يفروا الى بغداد صحبة القاضي ابي سعد الهراوي واجتمعوا بالخليفة المستظهر بالله بن المقتدي فذكروا له بالديوان حالتهم بكلام ابكى العيون واوجع القلوب وقام اهل بغداد بجامع مرجان فأستغاثوا وبكوا وقام الشاعر ابو المظفر الابيوردي فألقى القصيدة التالية امام الخليفة (١) .

مزجنا(٢) دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات ايقظت كل نائم
واخوانكم بالشام اضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي او بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وانتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد ابيحت ومن يد ... توارى حياء حسنها بالمعاصم
اترضى صناديد الاعاريب بالاذى ... وتقضي على ذل كماة الاعاجم(٣)
فليتهم اذ لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

(١) ابن الجوزي مرآة الزمان ص ٥٢١
(٢) رفيق التميمي ص ٦٠
(٣) يلاحظ كيف ان الشاعر العربي في العراق نظر الى هذه الحرب نظرة قومية عربية ، بينما لم ينظر اليها المؤرخ الفرنسي الا من وجهة نظر دينية



السلجوقية
الدولة البيزنطية
إمارة الرها
الرها
(اورفا)
إمارة انطاكية
انطاكية
حلب
قبرص
طرابلس
بيروت
دمشق
صيدا
صور
عكا
قيصرية
عسقلان
غزة
دمياط
القاهرة
الدولة الفاطمية
الدولة الصليبية
في
فلسطين أيام الفرنج

الفصل الثالث

الاخطاء العسكرية التي ارتكبها قادة العرب ايام الصليبيين
وايام الصهاينة في الجولة الاولى واحدة(١)

مخالفة مبادىء الحرب

اذا تتبعنا تسلسل الحوادث في معركة فلسطين التي دارت بين الفرنج وبين العرب في الحروب الصليبية نجد ان الاسباب التي من أجلها خسر العرب الحرب في الجولة الاولى ترجع بالدرجة الاولى الى مخالفة قادة العرب الفاضحة لمبادىء الحرب . الامر الذي مكن الفرنج من اكتساح البلاد العربية وامتلاك فلسطين . ومن المدهش حقا ان قادة العرب خالفوا تطبيق المبادىء نفسها في الحرب الفلسطينية الاخيرة فسببت لهم الفشل في الجولة الاولى مع الصهاينة كما سببت لهم الفشل في الجولة الاولى ايام الصليبيين تماما كما سيتضح .

ومبادىء الحرب كما هو معلوم هي خلاصة الاسس والقواعد العسكرية التي اوجدها القادة العظام في التاريخ وكانت من اسباب انتصاراتهم . ثم طبقها باقي القادة من بعدهم فكانت دوما من عوامل النصر .

ومن مميزات مبادىء الحرب هذه انها لا تتأثر بتبديل السلاح او بمرور الزمن ، فكما ان تطبيق هذه المبادىء كان من اسرار انتصارات القادة العظام الذين خاضوا الحرب بالاسلحة الجارحة كالاسكندر وقيصر وخالد بن الوليد وغيرهم . كذلك فان تطبيق هذه المبادىء كان

---

(١) المؤلف

من اسرار انتصارات القادة الذين خاضوا الحرب بالاسلحة النارية امثال نابليون ومولتكه ورومل وغيرهم • وكذلك فان تطبيق هذه المبادىء سيبقى من اسرار انتصارات القادة في المستقبل كما هو معلوم ايضا • الامر الذي يفرض التمسك بتطبيق هذه المبادىء والعمل بموجبها امرا محتما على جميع القادة في جميع العصور مهما كان نـوع السلاح المستخدم في ساحة المعركة (١) •

مخالفة مبدأ الحشد (٢)

وأول المبادىء الحربية التي خالفها قادة العرب في الجولة الاولى ايام الصليبيين هو مبدأ الحشد ، ومعنى الحشد كما هو معلوم « تهيئة جميع امكانيات الامة المادية والمعنوية والفنية بأسرها وتنسيقها في الزمان والمكان المطلوب اجراء المعركة الحاسمة فيهما » •

وهذا المبدأ يحتم على الامة التي تنوي الدخول في حرب ان تتهيـأ لها بكامل امكانياتها المادية والمعنوية والفنية او لا تدخلها اصلا •

فقادة العرب ايام الصليبيين لم يحشدوا جميع امكانياتهم في سائر انحاء بلادهم المترامية لصد الخطر الصليبي الداهم(٣)، بل ان كل ماحشدوه من قوات لهذه الغاية كان يقتصر على قوات الشام وحلب مع مفرزة من

---

(١) ومبادىء الحرب عددها ثمانية وهي :
 (١) مبدا تعيين الهدف او الغرض
 (٢) مبدا الحشد
 (٣) مبدا الاقتصاد بالقوى
 (٤) مبدا الهجوم
 (٥) مبدا الحركة
 (٦) مبدا التعاون
 (٧) مبدا الامن
 (٨) مبدا المفاجاة

(٢) المؤلف

(٣) وسبب ذلك الاستعمار وفساد الحاكمين كما شرحنا

الموصل كما هو معلوم فقط . وهذه المخالفة كانت من ابرز اسباب فشلهم في الجولة الاولى في ذلك العصر .

واذا دققنا النظر في احداث الحرب الفلسطينية التي دارت بين العرب والصهاينة في هذا العصر نجد ان العرب خالفوا نفس هذا المبدأ في الجولة الاولى مع الصهاينة ايضا . ذلك ان العرب لم يحشدوا امام الصهاينة جميع امكانيات الامة العربية المادية والمعنوية والفنية بل دخلوا الحرب بقسم من هذه الامكانيات فخسروا الحرب في الجولة الاولى كما خسروها ايام الفرنج تماما .

اما الاسباب التي جعلت العرب يخالفون مبدأ الحشد في عصر الفرنج وفي عصر الصهاينة فهي واحدة ايضا ، وهذه الاسباب هي الظروف السياسية المتشابهة التي حاقت بالامة العربية في العصرين كما ذكرنا (١) .

مخالفة مبدأ التعاون

اما المبدأ الثاني الذي خالفه قادة العرب في ايام الفرنج وايام الصهاينة وكان من ابرز اسباب الفشل في العصرين ايضا هو مبدأ التعاون .

وقد تمخضت مخالفة قادة العرب لهذا المبدأ ايام الصليبيين عن ارتكاب الاخطاء العسكرية الفادحة التالية التي أدت بهم الى الفشل في العصرين وهي :

أ — عدم وجود قيادة موحدة (٢)

لم يكن لجيوش الشام وحلب والموصل التي ذهبت لصد الفرنج عن انطاكية قيادة موحدة لتنسيق حركات هذه الجيوش وتعاونها

(١) هذه الاسباب هي الاستعمار وفساد الحاكمين كما ذكرنا .

(٢) منذ معركة واترلو عام ١٨١٥ لم يشترك الحلفاء في حرب دون قيادة موحدة ففي حرب ١٩١٤ كان المارشال فوش هو القائد العام لجيوش الحلفاء . وكان ايزنهاور هو القائد العام للحلفاء في الحرب الثانية . وكان ذلك من ابرز اسرار انتصارات الحلفاء في هاتين الحربين العالميتين .

وتنسيقهافي محاربة الفرنج • بل كان لكل جيش منها قيادةمستقلةمنفصلة عن غيرها و وبذلك حرمت الجيوش الثلاثة من التنسيق الموحد والتعاون المشترك للحصول على النصر الذي لا يتم الا بالقيادة الموحدة •

ومن المعلوم ايضا ان الجيوش العربية التي خاضت معركة فلسطين ضد الصهاينة في هذا العصر لم يكن لها قيادة موحدة عامة فكان ذلك من ابرز اسباب فشلها في هذه الحرب ايضا •

ب = عدم وجود خطة عامة للحرب :

وكما انعدم وجود قيادةموحدة ايامالصليبين لجيوشحلبوالشام والموصل كان حائلا دون تحقيق التعاون بينها جميعا كذلكحالدونوجود خطة عامةللحرب تشتركفيها كافةالقوات لتحقيقالنصر حسبالاصول • ففي كانون اول عام ١٠٩٨ وصل جيش الشام الى انطاكية فتغلب عليه الفرنج بسهولة وفي شباط من تلك السنة وصل جيش حلب فنصب له الفرنج كمينا وقضوا عليه • وفي ٨ تموز وصل الجيش الموصلي متأخرا فقضي عليه بسهولة ايضا •

وهكذا فشل العرب في ذلك الوقت لعدم وجود خطة عامة للحرب•

وفي ١٥ مايس عام ١٩٤٨ دخلت الجيوش العربية الى فلسطين دون وجود خطة عامة للحرب ايضا مخالفة بذلك مبدأ التعاون أيضا • اذ دخل الجيش المصري من الجنوب والجيش العراقي والاردني من الشرق • والجيش السوري واللبناني من الشمال دون وجود خطةعامة تنسق حركات الجميع وتحدد واجباتهم كي يتعاونوا على تحقيقها جميعا وكانت النتيجة ان ارتد الجيش السوري عن سمخ بخسائر فادحة• وحصر الجيش المصري في الفالوجة دون ان تعاونه باقي الجيوش • كما بقي الجيش العراقي متعطلا فينابلس دون انيتعاون معاحد(١)• وهذا كان

---

(١) بحجة ماكو اوامر (لايوجد اوامر)

من ابرز اسباب خسران الحرب الفلسطينية مع الصهاينة كما كان من ابرز اسباب فشلهم ايام الصليبيين .

ج = عدم التعاون مع سكان انطاكية وفلسطين :

ومن ابرز الاخطاء التي تمخضت عن مخالفة العرب ايام الفرنج لمبدأ التعاون هو عدم قيام العرب بمد مدينة انطاكية وباقي المدن الفلسطينية الواقعة في طريق الصليبيين الى القدس بما تحتاج اليه من مقومات الدفاع .

فالتاريخ يذكر ان الصليبيين حاصروا انطاكية مدة ثمانية اشهر وبعد فتحها انطلقوا الى القدس واحتلوها دون أي مقاومة وهذا يثبت ان العرب لم يعملوا على مد هذه المدن المعرضة للهجوم بمقومات الدفا عالضرورية وعلى العكس نجد (كاربوغا) قائد الجيش الموصلي يفاوض امير المدينة (ابن ياغي سيان) لتسليمه المدينة قبل ان يزج بجيشه في القتال بدل ان يتعاون معه لانقاذ المدينة ويزوده بما يحتاج اليه من مقومات الدفاع . كما ان الفاطميين لم يعملوا على تقوية حامية القدس بحيث تستطيع المقاومة لاطول مدة ممكنة .

فلما قدم الصليبيون ابيدت حامية القدس والرملة وترك السكان يتعرضون لاروع مجزرة شهدها التاريخ كما ذكرنا . وقد ارتكب العرب نفس هذه الخطيئة في الحرب الفلسطينية الاخيرة مع الصهاينة ايضا .

فلو ان الحكومات العربية زودت سكان فلسطين بمقوماتالدفاع خصوصا ان المفروض فيهم انهم يدافعون عن ارواحهم واموالهم واعراضهم لامكن ان تستمر معركة فلسطين سنوات عديدة اخرى قد تنهار مقاومة الصهاينة خلالها ويربح العرب المعركة .

أما مخالفة العرب لهذا المبدأ فقد نتج عنها ان معركة فلسطين انتهت بسرعة وبسهولة نظرا لانهيار المقاومة الداخلية كما حدث ايام الصليبيين تماما .

ان مبدأ التعاون يحتم في مثل هذه الاحوال وجوب تعاون الجيوش او الجيش الذي يتحرك لتحرير دولة ما مع سكان الدولة المطلوب تحريرها حتما . وذلك بمدهم بجميع مقومات الدفاع والمقاومة لاطول مدة ممكنة . وبذلك تنفتح الاحتمالات امام الجيش او الجيوش القائمة بالتحرير للحصول على النصر .

أما اذا استسلم سكان الدولة المطلوب تحريرها بسرعة كما حدث لفلسطين ايام الصليبيين وايام الصهاينة فان باب احتمال النصر يغلق بسرعة (راجع حركات الانصار في اوروبا في الحرب الثانية وحصار القوات البريطانية في طبرق في الحرب الاخيرة . وثورة بولونيا واسبانيا في عهد نابليون وثورة (غاريبالدي) في ايطاليا والحرب الكورية والهند الصينية والثورة في الجزائر التي مضى عليها الى الآن ثلاثة واربعين شهرا .

مخالفة مبدا الاقتصاد بالقوى

والمبدأ الثالث الذي خالفه قادة العرب ايام الصليبيين هو مبدأ الاقتصاد بالقوى . ومعنى هذا المبدأ (وجوب مراعاة الموازنة في استخدام القوات المقاتلة ويتم ذلك بتقسيم ساحة الحرب الى جبهة او جبهات رئيسية وجبهات ثانوية) . وقد تجلت مخالفة العرب ايام الصليبيين لهذا المبدأ حينما رفض القائد العراقي (كاربوغا) قتال الفرنج اولا بأول أثناء خروج جيش الفرنج من باب سور مدينة انطاكية كما تقدم .

فلو قام كاربوغا بالهجوم على الفرنج اثناء خروجهم من باب السور

لتحقق له النصر حتما ، وذلك لان رجحان كفة الموازنة التي ينص عليها مبدأ الاقتصاد بالقوى كان بجانب كاربوغا في هذه الحالة ، فلماتركهم دون قتال الى ان خرجو جميعا تحول رجحان كفة الموازنة الى الصليبيين فغلبوه .

وكذلك خالف قادة العرب مبدأ الاقتصاد بالقوى في الحرب الفلسطينية الاخيرة ، ذلك انهذا المبدأ كان يحتم على الجيوش العربية ان تقسم ساحة فلسطين الى جبهة اصلية وجبهات ثانوية ، وان تحشد خيرة قواتها في الجبهة الاصلية لكي تحصل على رجحان كفة الموازنة في الجبهة الرئيسية التي نص عليها مبدأ الاقتصاد بالقوى وتوزع باقي القوات العربية على الجبهات الثانوية .

أما العرب في الحرب الفلسطينية فقد هاجموا اليهود بأن دخل كل جيش من جيوشهم فلسطين من حدوده القريبة دون مراعاة مبدأ الاقتصاد بالقوى وتعيين جبهة رئيسية وجبهات ثانوية .

أما الجبهة الرئيسية في الحرب الفلسطينية الاخيرة فكان يمكن ان تكون القاطع المحصور بين مدينة اللد ومدينة طولكرم وذلك لان المسافة بين هذه الجبهة وبين البحر لاتزيد عن ١٦ كم تقريبا .

فلو قام العرب بالهجوم باتجاه البحر من هذا القاطع لانشطرت اسرائيل الى شطرين بسهولة ولقضي عليها بأقل جهد وبأقل خسارة وبأقصر وقت .

مخالفة مبدأ الامن

والمبدأ الرابع الذي خالفه قادة العرب ايام الصليبين هو مبدأ الامن ومعنى مبدأ الامن (سد جميع المنافذ التي يحتمل ان يتسرب منها العدو لمنع جيوشنا من حرية العمل وحرمانها من مبدأ (المفاجأة) وقدشاهدنا

ايام الصليبيين كيف ان مخالفة العرب لمبدأ الامن جعلت اخبار جيش حلب تتسرب الى الصليبيين في انطاكية. فقام الصليبيون ونصبوا كمينا لجيش حلب بين بحيرة العمق ونهر العاصي وقضوا عليه قبل ان يصل الى ساحة المعركة كما ذكرنا .

وقد خالف قادةالعرب مبدأ الامن فيالحرب الفلسطينية معالصهاينة ايضا وذلك حين قامت الصحافة العربية في العواصم العربية ونشرت قرار الحكومات العربية بادخال الجيوش العربية الى فلسطين . فقد نشرت الصحف هذا الخبر قبل ان تدخل الجيوش العربية فلسطين بأسابيع عديدة .

كما ان اخبار الحكومات العربية وجيوشها كانت تتسرب الى الصهاينة بسهولة مما سهل على اليهود محاربة الجيوش العربية كل جيش على انفراد وحققوا الهدنة الحالية مع العرب .

وهكذا كانت مخالفة العرب لمبادىء الحرب ايام الصليبيين من اسباب فشلهم كما كانت مخالفة هذه المباديء من اسباب فشلهم في عصرنا الحاضر ايضا (١) .

---

(١) قال موسى ديان رئيس اركان العصابات اليهودية (ان سبب انتصار اليهود على العرب في حرب الميلاد .. (كذا) هو اننا كنا نعلم كل شيء عن العرب .. (كذا) بينما العرب لا يعرفون اي شيء عنا) عن كتاب ادفع دولارا تقتل عربيا .

احوال دولة الفرنج السياسية والعسكرية التي استقرت في فلسطين

بعد ان سقطت مدينة القدس بأيدي الصليبيين عام ١٠٩٩ اسسوا لهم دولة في فلسطين كما هي مرسومة على الخريطة (لجاك بيرين) [١] وكانت هذه الدولة تتألف كما هو معلوم من اربع امارات وهي الرها وانطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس .

وقد دب الخلاف بين زعماء هذه الامارات منذ وصول الفرنج الى انطاكية . فقد هدد (بوهمن) قائد الجيش الايطالي باقي قادة الحملة الصليبية بالرجوع الى ايطاليا انلم يعطوه مدينة انطاكية. فأعطوه اياها مرغمين . وهذا مما اوجد الحسد في نفوس باقي أمراء الصليبيين [٢] . وكانت رقعة الخلاف تشتد بين الامراء كلما اقترب الفرنج من القدس فلما بلغوها اختلفوا على انتخاب الملك [٣] .

وقد استغل زعماء العرب هذا الخلاف واتخذوه سلاحا للتفريق بين ملوك اوروبا وبين ملك القدس من جهة . ومن جهة اخرى التفريق بين ملك القدس وامراء الصليبيين في فلسطين . حتى غدت سياسة التفريق سلاحا قاتلا بيد نور الدين محمود مكنه من اضعاف الصليبيين وتوحيد الامة العربية [٤] . كما سيتضح . ومن سياسة نور الدين محمود السابقة نتلقى اول درس في مكافحة اسرائيل وهو ان نعمد الى التفريق بينها وبين دول الغرب .

وبالرغم من ان دولة الفرنج كانت تمتاز على اسرائيل بكبر حجمها واتساع

---

(١) انظر المخطط .

(2) Raimond d'Agiles, Historia Francorum (R.H. occ, cr. t. III

(٣) Raimond d'Agiles P. 268 الحرب الصليبية الاولى حسن حبشي ص ٧٢

(٤) راجع سياسة نور الدين محمود في قتال الحملة الصليبية الثانية في دمشق حتى ان صلاح الدين استطاع ان يجعل من امير طرابلس (رايموند) صديقا مخلصا ساعده على كسب معركة حطين (راجع كتاب J. F. C. Fuller) صفحة ٤١٢ المجلد الاول .

رقعتها فانها كانت تمتاز عليها ايضا باتصالها المباشر مع اوربا عن طريق البر علاوة عن اتصالها معها عن طريق البحر ، وذلك عن طريق دولة ارمينيا والدولة البيزنطية كما هو ظاهر على المخطط .

والاهم من هذا كله ان دولة الفرنج كانت تدافع عنها جيوش اوربا النظامية بأسرها تقريبا (١) . وقد حصن الفرنج دولتهم بالاسلوب المعروف الآن بـ « الدفاع بالعمق » وهو الاسلوب الذي ينادي به الآن كبار خبراء (الاستراتيجية) في هذا العصر .

أمثال الجنرال « فولر J. F. C. Fuller» وغيره .

وعلى هذا الاساس جعل الفرنج دولتهم صفحة دفاعية تشمل رقعة البلاد بأسرها ، وذلك بانشاء عدد كبير من القلاع والحصون في مفارق الطرق والمضائق في كافة انحاء فلسطين . وكانت الغاية من هذه القلاع هجومية دفاعية فاذا هاجم العرب احدى هذه القلاع هبت باقي القلاع لنجدتها وارغام العرب على التراجع او الموت تحت الاسوار . اما الغاية الهجومية فهي اتخاذ القلاع القريبة من الحدود العربية بمثابة نقاط وثوب لمهاجمة الاقاليم العربية المجاورة ، كقلعة حصن الاكراد وقلعة صافيتا لتهديد حمص وحماه ، وقلعة صفد وبانياس لتهديد دمشق ، وقلعة الكرك لقطع الاتصال بين سوريا ومصر والحجاز ، وقلعة المرقب وطرابلس وعكا وقيسارية لادامة الاتصال باوربا عن طريق البحر (٢) . ويفهم من ذلك كله ان دولة الفرنج كانت اقوى من اسرائيل اضعافا مضاعفة . فاسرائيل اصغر من دولة الفرنج من جهة ، ولا تدافع عنها جيوش كجيوش اوربا النظامية من جهة ثانية ، كما ان اسرائيل غير متصلة مع اوربا بطريق بري كما كانت دولة الفرنج (٤) .

---

(1) Gibb, H. A.R., Damascus Chronicle of the Crusades

(2) The Second World War by, J.F. C. Fuller «Chapter I»

(٣) من مطالعات المؤلف عن الحروب الصليبية في الكتب المختلفة .

كتاب فللر (الحرب العالمية الثانية)

(٤) انظر مخطط الدولة الصليبية

الفصل الرابع

بدء اليقظة العربية (اشتعال القومية العربية)(١)

استكان العرب فترة قصيرة بعد كارثة فلسطين تخللتها سلسلة من تعديات الفرنج وعدوانهم على القرى العربية المجاورة لحدود دولة الفرنج بأسرها ، ثم تركزت هجماتهم على القطاع الشمالي من الحدود المجاورة لمدينة حلب وسبب ذلك ان «تنكريد» امير الرها الصليبي قرر ان يضم حلب الى دولة الفرنج . وتمهيدا لذلك امعن الفرنج بهدم القرى العربية المجاورة لحلب ونشروا الذعر والارهاب في نفوس السكان بالتشريد والتقتيل . وقد تخللت هذه الفترة سلسلة من المآسي والنكبات ارتكبها الفرنج في القرى العربية حتى وصلت هذه التعديات الى مدينة حلب نفسها (٢) .

ولما وجد اهالي حلب ان امراء السلاجقة (المستعمرين) غير قادرين على حمايتهم لم يجدوا سبيلا سوى الهجرة الى بغداد (٣) .

ثورة بغداد

ويقول ابن قلانس مؤرخ تلك الفترة صفحة ١٧٣ ما يلي : « ان قسما كبيرا من اشراف حلب وعائلاتهم وتجار المدينة هاجروا عام ١١١٠

---

(١) اطلق الرئيس جمال عبد الناصر على هذه الفترة في هذا العصر (اشتعال القومية العربية)
(1) Stevenson : Crusaders P. 90

(٢) ابن العديم ص ٣٩٨ ، ابن الاثير ج ١٠ ص ١٨٢

(٣) ابن قلانس ذيل ص ١٧٣ ، نور الدين والصليبيون لحسن حبشي ص ١١٤

الى بغداد واستغاثوا بالخليفة المستظهر بالله فاجتمع اهالي بغداد وقت صلاة الجمعة وازلوا الخطيب عن المنبر وحطموه ونادوا بالجهاد ومنعوا الناس من الصلاة » • ثم يستطرد ابن قلانس ويقول : « وتكرر هذا الحادث مرة اخرى بمسجد الخليفة نفسه » •

ويفهم من ذلك ان الشعب العراقي منع الخليفة من الصلاة او النزول على ارادة الشعب • وتلمح هذه المصادر ان الشعب العراقي تمادى على الخليفة بالضرب في المسجد وارغمه على اعلان الجهاد ، حتى ان ابن قلانس وصف الحادث انه كان الاول من نوعه في تاريخ الاسلام (١) •

وقد يتساءل المرء عن اسباب تصرف الشعب العراقي هذا التصرف نحو الخليفة ، ولكن الجواب يبدو واضحا للغاية عندما نرجع الى هذه الفترة من تاريخ الدولة العباسية فنجد ان اولاد الملك شاه السلاجقة قد استبدوا بالدولة العباسية تماما وان الخلفاء انفسهم خضعوا لهم واصبحوا أداة الاستعمار وركيزته في العراق • فالمستظهر بالله هذا كان عبارة عن (وصي) لدى السلطان محمود بن ملك شاه السلجوقي المستعمر يتلقى أوامره ورواتبه منه • ويتفق المؤرخون ايضا على ان المستظهر كان ماجنا يقضي اوقاته في الصيد او قرض الشعر حتى وصفه ابن الاثير بأن ايامه كانت كلها اعيادا (٢) •

---

(١) قال حسن حبشي في كتابه «نور الدين والصليبيون» ص ١٤ـ١٥ (وزادوا فمنعوا الناس من الصلاة ..... واذعن الخليفة وتداك لمظاهرة البغداديين لاغاثة الحلبيين ... واستقرت عزيمتهم على تسيير الجيوش للجهاد) •

(٢) في كتاب الشرق الاسلامي لحافظ احمد حمدي ص ١٥٧ نجد اسم هذا الخليفة مدرجا في قائمة اسماء الخلفاء العباسيين الذين خنعوا لحكم السلاجقة من عام ١٠٩٤م ـ ١١١٨م •

لما وفد اهالي حلب وعائلاتهم بحالة تفتت الاكباد من جور الفرنج اشاح السلطان محمود بن ملك شاه السلجوقي وجهه عنهم وقلده الخليفة المستظهر بذلك، فثار الشعب العراقي ضد الاستعمار واذنابه، وارغم المستظهر في جامع بغداد الكبير على الخروج على طاعة السلطان محمود بن ملك شاه السلجوقي المستعمر والنزول على ارادته في اعلان الجهاد • ولما انضم المستظهر الى شعبه مرغما تحطمت ركيزة الاستعمار وأداته واسقط في يد السلطان محمود • وانهار الاستعمار من اساسه في العراق حتى ان المهايني وصف الخلفاء الذين جاءوا بعد المستظهر انهم كانوا متحررين من نفوذ السلاجقة بعد حادث بغداد •

وفي عام ١١١١ هب مودود بن اسماعيل (١) والي الموصل لقتال الفرنج بعد هذا الحادث وأخذ يكيل للفرنج الصاع صاعين ، وأرغمهم على ايقاف تعدياتهم •

ومن هذا التاريخ سرت روح اليقظة في الامة العربية بأسرها (اشتعال القومية العربية) ، ودب فيها تيار عنيف نحو الوحدة العربية الشاملة وطرد الفرنج بعد ان تخلصت من الاستعمار • وبذلك اصبح امراء السلاجقة في الاقطار العربية منفذين لارادة شعوبهم في الوحدة العربية وقتال الفرنج ومنقادين لتحقيق هذه الارادة ، يسعون لذلك بكل قواهم وجوارحهم ، كما سيتضح ، وهذا ما فيه اسمى معاني الانطلاق والتحرر للشعب العربي في ذلك الوقت • وبذلك فان الخلاص من الاستعمار كان بداية البدايات التي بدأ منها العرب بتحقيق الوحدة العربية في ذلك الوقت ، وأول خطوة سلكوها في هذا السبيل •

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ١٨٨ ، ومن شعر المستظهر البيتين التاليين كما ورد لابن الاثير في ج ١٠ ص ١٨٨ في الغزل :

اذاب حر الهوى في القلب ما جمدا   لما مددت الى رسم الوداع يدا
ان كنت انقض عهد الحب في خلدي   من بعد هذا فلا عاينته ابدا

وهذه الحقيقة التاريخية الدامغة فيها الجواب المفحم والحجة البينة للقائلين بالاتحاد مع الاقطار العربية الاخرى بالرغم من وجود الاستعمار وأذنابه • فالتاريخ يقول لنا على العكس تماما ويحتم على المخلصين في كافة البلاد العربية ان يعملوا على تخليص البلاد العربية من الاستعمار واذنابه اولا قبل ان يفكروا في الوحدة العربية الشاملة ، فاذا تحقق ذلك فان الوحدة العربية التي ننشدها جميعا ستكون نتيجة طبيعية لذلك حتما ، كما حدث للعرب ايام الفرنج تماما •

وبعد ان استقر مودود في الموصل انضم اليه الامير « بورى » وأمير « قلعة شيزر » مدفوعين بارادة شعبيهما ايضا واتفقا مع مردود على مهاجمة طرابلس لطرد الفرنج منها (١) •

اثر جمعية الحشاشين في تأخير الوحدة العربية

ولكن جمعية الحشاشين او الباطنية السرية اخذت ترى في حركة التكتل العربية هذه حول مودود خطرا على مبادئها الفارسية فاغتالت مودودا عام ١١٢٧ ثم استمرت بارتكاب سلسلة من الاغتيالات حتى قضت على عدد كبير من الزعماء منهم امير ماردين الذي تزعم حركة المقاومة والوحدة بعد مودود • كما اغتالت « الامير بورى » امير دمشق وعماد الدين والد نور الدين محمود • كما حاولت اغتيال صلاح الدين الايوبي كما هو معلوم (٢) •

---

(1) Albert d'Aix, op. cit., P. 663

(١) ابن القلانسي الذيل ١٧٥ ــ ١٨٥ ، حسن حبشي ، نور الدين ، والصليبيون ص ١٧

(٢) صبح الاعشى ج ١٣ ص ٢٤٥ ، الروضتين في اخبار الدولتين (ص ٥٢ ، ١٩٨) ابن ميسر اخبار مصر ج ٢ ص ٦٨ الشرق الاسلامي لحافظ احمد حمدي ص ٦٧ ، ابن العماد ج ٤ ص ٧٨

وهكذا فقد اخر الحشاشون الوحدة العربية حوالي نصف قرن كانوا يغتالون في هذه الفترة اي زعيم يحاول توحيد العرب لقتال الفرنج (١) • ومع ذلك فان حركة المقاومة لم تخمد خلال هذه المدة ، فقد قام العرب باختطاف عدد كبير من زعماء الفرنج وقادتهم واحتجزوهم كرهائن لايقاف تعديات الفرنج ، منهم « جوسلين » امير الرها و « بلدوين الثاني » ملك القدس و « برنارد » امير انطاكية وغيرهم (٢) •

وكان لهذه الاختطافات اثرها البالغ في رفع المعنويات ، كما كانت ضربة قاصمة لهيبة الفرنج في فلسطين ، ولو قام العرب بمثل هذه المحاولات الآن لأوقفوا تعديات اليهود على القرى العربية حتما •

عماد الدين زنكي

في هذا الظرف الذي كانت فيه آمال العرب لتحقيق الوحدة وطرد الفرنج تتأرجح بين المد والجزر استطاع عماد الدين زنكي ان يحوز ثقة الخليفة المسترشد بالله فولاه الموصل عام ١١٢٧م (٣) • وقد عرف عماد الدين انه كان واسع الحيلة بعيد النظر ذا مواهب عسكرية ، وقد أخذ على عاتقه توحيد الامة العربية المبعثرة واقامة جبهة موحدة لطرد الفرنج من فلسطين •

وليس من اختصاص هذا البحث استقصاء نسب عماد الدين زنكي، ولكن العبرة انه كان هو وابنه نور الدين يشعران بآلام الامة العربية وآمالها ، ويتحليان بتقاليدها وعاداتها وينطقان بلغتها ، وقد حققا لها

---

(١) نور الدين والصليبيون حسن حبشي ص ١٩ — ٤٠

(٢) ابن قلانس الذيل ص ٢٠٨ ، نور الدين والصليبيون لحسن حبشي ص ٢٠

(٣) ابن العديم « المنتخبات » ص ٦٥٨

التحرر من الاستعمار السلجوقي ، ورسما لها طريق الوحدة العربية السليمة ، وقاداها الى السبيل السوي الذي مكنها من طرد الفرنج وتحرير فلسطين كما سيتضح . وهذه هي مشاكل الساعة التي تواجهها الامة العربية بأسرها في عصرنا الحاضر تماما .

واذا تتبعنا اسلوب عماد الدين زنكي وابنه نور الدين من بعده في معالجة مشاكل الساعة للامة العربية في ذلك العصر ، نرى انهما لم يجدا سبيلا لتحقيق ذلك سوى القوة ، وقد وجدا ان القوة تحتاج الى جيش ، فلما اذاع عماد الدين قراره لتكوين جيش لمحاربة الصليبيين لمس تجاوبا عميقا في الامة العربية بأسرها والتفت حوله نفوس متعطشة للانتقام من حلب والشام والموصل وسائر انحاء الامة العربية .

خطة عماد الدين لقتال الصليبيين

اذا تتبعنا مجرى الاحداث في عهد عماد الدين من المصادر التاريخية المختلفة نجد ان الخطة التي سار عليها عماد الدين للقضاء على دولة الفرنج في فلسطين تقوم على اساس تفهمه للحقيقة التالية :

— ان الصليبيين لا يستمدون مقومات بقاء كيانهم في فلسطين من القوة المنبعثة عنهم بأنفسهم ، انما يستمدون مقومات هذا البقاء اعتمادا على مساندة الجيوش الاوربية وقيامها بنجدتهم فورا اذا ما حاول العرب اكتساح دولتهم بحجة الدفاع عن القبر المقدس .

— ومن هذه الحقيقة ادرك عماد الدين انه اذا قام بمهاجمة الفرنج فان ذلك من شأنه ان يفتح المجال امام الجيوش الاوربية للقيام بمغامرة جديدة واعلان حرب صليبية جديدة لا قبل له بمواجهتها .

وعلى اساس هذه الحقائق وضع عماد الدين خطته لاسترجاع

فلسطين كما يلي كما دل عليها تسلسل الحوادث التاريخية في مختلف المصادر التي سنأتي على ذكرها :

أ — القيام بتوحيد الاقطار العربية المتاخمة لحدود الدولة الصليبية (١) .

ب — الشروع باسترجاع فلسطين امارة بعد امارة ومدينة بعد اخرى وحصن بعد الآخر في فترات متفاوتة (٢) وذلك لان استرجاع فلسطين بالتدريج ليس من شأنه ان يثير الجيوش الاوربية ويستفزها فتتحرك من اوربا لاسترجاع كل مدينة وكل قلعة يستولي عماد الدين عليها وبذلك فلا يمضي وقت طويل حتى يكون عماد الدين قد استرجع فلسطين دون اثارة الجيوش الاوربية لمقاتلته .

ج — استغلال النزاع او التفرقة التي قد تحدث في صفوف امراء الفرنج والعمل على اذكائها (٣) . ويدل مجرى الاحداث التاريخية كما سيتضح ايضا ان عماد الدين قرر ان يبدأ بمهاجمة امارة الرها القريبة منه . وقبل ان يبدأ بذلك قرر ان يطوقها من عدة جهات ، وان يضم حلب الى الموصل ، ثم يضم جزيرة ابن عمرو نصيبين على هذا الاساس ، وبذلك يطوق الرها من الشرق والشمال والجنوب (انظر المخطط) ، ثم ينتهز الفرصة المناسبة ويفاجىء الرها ويستولي عليها . ثم ينتقل للاستيلاء على امارة انطاكية بنفس الاسلوب .

---

(١) د ل على ذلك مجرى الاحداث التي حدثت في عهد عماد الدين

(٢) يتضح ذلك تماما في تفاصيل خطة عماد الدين استرجاع امارة الرها واسترجاع انطاكية

(٣) تتجلى هذه الحقيقة بوضوح حين نعلم كيف استغل عماد الدين الخلاف بين (ريموند دي بواتيه) امير انطاكية و (جوسلين) امير الرها كما سيتضح .

نواة الوحدة

توحيد امارة حلب وامارة الموصل

ولتحقيق هذه الخطة استصدر عماد الدين مرسوما عام ١١٢٨ من الخليفة المسترشد بالله كي تكون حلب من البلاد الداخلة في حكمه وقدتم له ذلك (١) .

وفي عام ١٩٢٨ في السنة ذاتها استولى عماد الـدين على جزيرة ابن عمرو شمال الموصل ، كما استولى على نصيبين والخابور (٢) ، وبذلك نجح عماد الدين في تطويق الرها من الشرق والشمال والجنوب ، ثم أخذ يتحين الفرص المناسبة لمفاجأة الرها واكتساحها كما تقدم . وبذلك تحققت نواة الوحدة .

ولكن حدثت تطورات هامة في هذه الفترة في دولة دمشق ارغمت عماد الدين ان يصرف النظر موقتا عن مهاجمة الرهـا الى ان تستقر الاحوال بدمشق . وخلاصة ذلك ان دولة دمشق في هذه الفترة كانت تخضع الى حكم « تاج الملك بورى » مـن اتابكة دمشق (٣) وكانت تشتمل على مدينة دمشق وبعلبك وحمص وحوران ، وكانت طائفـة الباطنية تقيم في قلعة بانياس الواقعة على الحدود السورية الفلسطينية (٤) وقد امتد خطر الباطنية الى دمشق ، وبلغ زعيم الباطنية « اسمـاعيل العجمي » ان تاج الملك بورى أمير دمشق ينوي الفتك بطائفته ، فما كان من اسماعيل العجمي الا ان سلم حصن بانياس الى الصليبيين عام ١١٢٨ وانضم اليهم وأخذ يحرض الصليبيين على اكتساح دمشق (٥) .

وفي تشرين عام ١١٢٩ اخذ الملك « فولك » ملك القدس يستعد لمهاجمة دمشق ، مستثمرا انضمام طائفة الباطنية الى جانبه لتحقيق حلم الصليبيين القديم في ضم دمشق الى الدولة الصليبية (٦) .

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٤١
(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٣ ص ١٠٢
(٣) حافظ احمد حمدي ، الشرق الاسلامي ص ١٦١
(٤) حسن حبشي ، نور الدين ، والصليبيون ص ٢٤
(٥) الدول والملوك ج ٣ ص ١٨
(٦) راجع الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٨

هذه هي التطورات التي ارغمت عماد الدين ان يتريث في مهاجمة الرها الى ان تستقر الاحوال في دمشق ، وذلك لانه لا يستطيع ان يتوجه الى الرها ويدير ظهره الى دمشق التي يستعد الملك « فولك » ملك القدس لاكتساحها . ثم تعقدت الاحوال في دمشق حين قام الباطنية في تموز عام ١١٣١ واغتالوا امير دمشق تاج الملك بورى(١) انتقاما منه لمحاولته محاربتهم كما تقدم ، وتولى الحكم بعده أخوه « شمس الملك اسماعيل » وهو طفل صغير عام ١١٣١ وقد وجد الفرنج بهذه المناسبة ان الفرصة مناسبة لامتلاك دمشق اكثر من أي فرصة اخرى نظرا لصغر سن أمير دمشق الجديد .

ولكن ظنون الفرنج خابت وذلك حينما قام جيش دمشق في تلك السنة وفاجأ قلعة بانياس واستردها من الفرنج والباطنية الذين انحازوا مع قلعة بانياس الى صفوف الصليبيين كما تقدم .

وانتقاما لهذا العمل اغتال الباطنية الملك اسماعيل عام ١١٣٤ امير دمشق الجديد أيضا(٢) وتولى امارة دمشق مكانه أخوه « شهاب الدين أنر » الذي صالح الفرنج وهادنهم خوفا من الاغتيال .

توسع نواة الوحدة

خطة عماد الدين لاسترداد الرها

اتخذ عماد الدين من مهادنة شهاب الدين للفرنج فرصة مناسبة لتصفية الحساب مع دمشق كي يتفرغ لمهاجمة الرها في الشمال فقرر ان يضم دمشق ليحميها من اغتيالات الباطنية وطمع الفرنج بضمها الى دولتهم . وعلى هذا الاساس استولى عماد الدين على حمص وبعلبك

---

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٧٨

(٢) يقول حسن حبشي في كتابه نور الدين والصليبيون أن امه زمرد خاتون هي التي امرت بقتله .

التابعتين الى دمشق(١) الامر الذي جعل شهاب الدين أمير دمشق الجديد يعقد تحالفا عسكريا مع الفرنج لضمان سلامة دولته من مهاجمة عماد الدين . وقد رحب الفرنج بهذا التحالف وعدوه فرصة مناسبة للاستيلاء على دمشق . وتحرك الملك فولك ملك القدس لمساعدة شهاب الدين في الدفاع عن دمشق ضد عماد الدين فورا . وقد استفز هذا التحالف عماد الدين وتحرك هو الآخر بجيشه الى دمشق لحمايتها من الفرنج . وحين التقى عماد الدين بجيش الصليبيين قرب دمشق تظاهر بالانسحاب والهزيمة أمامهم ، فقام الصليبيون بمطاردته حيث جرهم عماد الدين الى كمين محكم وقضى على جيش الملك فولك وأرغم فلوله على العودة الى فلسطين(٢) . وبعد رجوع فولك من هذه الحملة فاشلا توفي في فلسطين وتولت العرش « مليزند » زوجة الملك فولك كوصية على العرش نظرا لصغر سن ابنها(٣) . وبموت الملك فولك تلاشت اطماع الفرنج بالاستيلاء على دمشق وبذلك اطمأن عماد الدين من ناحية دمشق وتفرغ لمشروعة السابق وهو استرجاع الرها ثم انطاكية كما تقدم .

عماد الدين يفاجيء الرها ويستردها من الفرنج

انتهز عماد الدين فرصة وقوع الخلاف بين « ريموند دي بواتيه » امير انطاكية وبين « جوسلين » امير الرها(٤) واستفحاله بينهما ، فاستعد لمهاجمة الرها لان امير انطاكية لن يحرك ساكنا لمساعدتها في هذه الحالة . فقوات عماد الدين تحيطها من الشرق والشمال والجنوب وامير انطاكية

---

(١) ابن الجوزي مرآة الزمان ص ٦٨ ، ابن القلانسي ص ٢٦٩
(٢) حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ص ٣٠
(٣) هو بلدوين الثالث
(4) Stevenson : Crusaders, P. 149

من الغرب • وفي هذه الاثناء أخبره جواسيسه ان امير الرها غائب عن الامارة ، فانتهز عماد الدين هذه الفرصة السانحة ايضا وتظاهر بانه ينوي الحركة الى (تل باشر) • وفي الليل عرج باتجاه الرها وفاجأها واستولى عليها يوم ٢٨ تشرين الثاني عام ١١٤٤(١) ، ثم أخذ يستعد لاكتساح انطاكية ، وبينما كان عماد الدين يتهيأ لمفاجأة انطاكية واسترجاعها اغتاله الحشاشون عام ١١٤٦(٢) قبل ان يتم خطته ، وخلفه ابنه نور الدين محمود الذي سار على نفس الخطة التي رسمها ابوه كما سيتضح •

وحدة سورية الشامية

كيف حقق نور الدين محمود الوحدة مع دمشق

لقد تجلت عبقرية نور الدين محمود لاول مرة في قدرته الخارقة على انتخاب رجال حاشيته من سياسيين وعسكريين امثال نجم الدين وأسد الدين وصلاح الدين الايوبي(٣) وغيرهم ، ذلك انعبقرية الزعيم لا تقتصر على قدرته في الوصول الى سدة الحكم فقط ، كما يقول « ماكفيلي » ، انما عبقرية الزعيم الحقيقية تتوقف على قدرته في انتخاب رجال حاشيته •

وهكذا كان نور الدين محمود •

وجد نور الدين انقتالأمير دمشق (محمد أنر) لضم البلاد بالقوة لبس فيه ما يرفعه ويحببه الى نفوس الامة العربية بقدر مقاتلة الفرنج • والاهم من ذلك كله فان سقوط الرها بأيدي العرب أحدث دويا هائلا في اوربا بأسرها ، وشرعت باعداد الحملة الصليبية الثانية لانقاذها •

(١) ابن القلانسي الذيل ص ٢٧٩

(٢) الذهبي تاريخ الاسلام ص ٩٥

(٣) هاجر صلاح الدين هو وعمه وابيه نجم الدين واسد الدين من بلدة تكريت من العراق بعد ان غضب الخليفة العباسي عليهم . وكان صلاح الدين لا يزال طفلا رضيعا .

فاذا اشتبك نور الدين مع (محمد انر) في حرب قبل وصول الحملة الثانية لانقاذ الرها فانه سوف يحمل (محمد أنر) على الانضمام الى جانب الفرنج في المعارك المقبلة • ولهذا السبب بدأ نور الدين محمود ينتهز الفرصة لفسخ التحالف المعقود بين محمد بورى(١) والفرنج اولا •

في هذه الاثناء قررت « ميليزند » الوصية على عرش الفرنج في القدس فسخ التحالف العسكري المعقود مع دمشق تمهيدا لمهاجمتها وضمها الى دولة الفرنج بمعونة الحملة الصليبية الثانية القادمة من اوربا • وعلى هذا الاساس حرضت هذه الوصية « التونتاش » (٢) أمير صلخد بالتمرد على حكومة دمشق ووعدته بتقديم المساعدات العسكرية ، وقد لجأ التونتاش الى قلعة صلخد وحاصر فيها بانتظار جيش الوصية « ميليزند » لمعاونته في قتال امير دمشق ، فانتهز نور الدين الفرصة السانحة وتحرك بجيشه الى صلخد فورا لمعاونة محمد أنر كي يهزم التونتاش قبل وصول نجدات الوصية من القدس، ثم كمن بجيشه لجيوش الوصية على طريق صلخد ومزقها وبدد حملة المساعدة بكاملها قبل وصولها (٣) • وكانت حركة نور الدين هذه ضربة قاصمة لمحمد بورى أمير دمشق وللفرنج ولأمير حوران على السوداء •

اما بالنسبة لأمير دمشق فقد حقق نور الدين نصرا شعبيا تجاه الرأي العام في دمشق بانتصاره على الوصية على عرش الفرنج ، كما تخلص من أمير حوران المتواطىء مع الفرنج •

---

(١) هو وزير محمد انر (امير دمشق) وهو الذي ابرم المعاهدة مع الفرنج.
(٢) ابن القلانسي ذيل ص ٣٨٩
(2) Stevenson, Crusaders in the East, P. -158
(٣) يعترف المؤرخ الصليبي وليم الصوري في كتابه (G. T., Historia) ص ٧٢٥ أن العرب أمدوا الصليبيين بعد هزيمتهم بالمؤنة اللازمة كما جاءهم فارس عربي يبصرهم مسالك الطريق !!.. الخ
(3) Gibb : Damascus Chronicle, P. 278

واما بالنسبة للفرنج باوربا فان حركة نور الدين هـذه جعلتهم يوجهون الحملة الفرنجية الثانية للاستيلاء على دمشق بدلا من توجيهها لاسترجاع مدينة الرها ، وذلك للانتقام من أمير دمشق(١) ، وهذا مما ساعد نور الدين على جعل أمير دمشق أن ينضم الى جانبه ضد الحملة الصليبية الثانية .

وبذلك برهن نور الدين على نبوغ سياسي وعسكري سهل عليه تحقيق فكرة ضم دمشق الى حلب والموصل ، كما سهل عليه الانتصار عسكريا على حملة الفرنج الثانية ، وذلك بجعل جيش دمشق ان ينضم الى جانبه ضد الفرنج بعد انفسخ تحالفه معهم ولولا انتهاز نور الدين لهذه الفرصة السانحة لاستفاد الفرنج من تحالفهم مع امير دمشق ، ذلك التحالف الذي كان أمير دمشق يسعى لابقائه مع الفرنج قبل حادثة صلخد . ولو عاد هـذا التحالف كما كان سابقا لوجه الفرنج الحملة الفرنجية الثانية للقضاء على نور الدين في الرها بمساعدة امير دمشق واسترجعوا الرها ثم ينقضوا على أمير دمشق نفسه كما انقضوا على الفاطميين في القدس سابقا وينتزعون دمشق وتحل الكارثة(٢) .

وهكذا مهد نور الدين بعبقريته وبانتهازه الفرصة في حادث صلخد لانقاذ الامة العربية بأسرها من كارثة محققة كادت أن تطوح بها الى الابد ، كما مهد الطريق لضم دمشق الى حلب والموصل ايضا .

نور الدين يحبط الحملة الفرنجية الثانية على دمشق دون حرب

كانت الحملة الثانية تتألف من سبعين الف خيال عدا المشاة من انجليز وطليان وكانت تمتاز على الحملة الاولى أنها جيش نظامي لاحج مسلح كما كانت الحملة الاولى . ولما وصلت الحملة الثانية الى القدس عقد الفرنج مؤتمرا عسكريا يوم ٢٤ تموز عام ١١٤٨ حضره جميع

---

(١) حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ص ٥٠ .
(٢) اهمية دمشق للعرب كما يقول فولر (Fuller) لوقوعها على الطريق الرئيسي بين سورية ومصر .

البارونات والامراء ورجال الدين . وقد اتخذ المؤتمرون قرارا بوجوب مهاجمة دمشق نظرا لاهميتها السياسية ، وبذلك يكون الفرنج قد قرروا مهاجمة دمشق لاعتبارات سياسية فقط ، دون اخذ الاعتبارات العسكرية بعين الاعتبار .

ان الفرق بين قرار نور الدين بمهاجمة امير حوران في صلخد وقرار الفرنج بمهاجمة دمشق في الحملة الثانية هو ان نور الدين اتخذ قراراته بمهاجمة أمير حوران الثائر بعد أخذ الاعتبارات السياسية والعسكرية بنظر الاعتبار . اما الفرنج فقد قرروا توجيه الحملة الثانية للاستيلاء على دمشق لاعتبارات سياسية فقط دون أخذ الاعتبارات العسكرية بنظر الاعتبار . وبذلك يكون نور الدين محمود قد عمل بقول نابليون الذي جاء بعده بستة قرون حيث قال : « ان القرارات العسكرية المتخذة دون اخذ الاعتبارات السياسية بنظر الاعتبار خطرة بقدر القرارات السياسية المتخذة دون أخذ الاعتبارات العسكرية بنظر الاعتبار » .

وفي خريف ١١٤٨ تقدم الفرنج الى دمشق عن طريق بانياس ووادي العجم واستولوا على المزة والربوة لقربهما من الماء وحاصروا دمشق[1].

وكان نور الدين يرقب حركات الفرنج بدقة بالغة ، فلم يكد الفرنج يصلون دمشق حتى استصرخ أمير دمشق نور الدين لحمايته من الفرنج ، فلبى نور الدين محمود الطلب فورا وتحرك بجيشه من حلب الى دمشق وهذا غاية ما كان يرجوه ، ولم يكد خبر حركة جيش حلب وجيش الموصل بقيادة نور الدين يصل الى الفرنج حتى ادرك الفرنج مدى الخطر الداهم ، فانسحبوا عن دمشق فورا خوفا من اجتماع قوى

---

(١) ابي شامة « الروضتين » ص ٥٦ ، ابن الاثير « الكامل » ج١١ ص٥٨

العرب من الشام وحلب والعراق ضدهم (١) ، وبذلك أحبط نور الدين بعبقريته في حادث صلخد حملة الفرنج الثانية لاحتلال دمشق دون قتال او حرب .

نور الدين محمود يلجأ الى سياسة التفريق بين اعداءه

استشعر نور الدين بعد انسحاب الفرنج عن دمشق ان « بلدوين الثالث » ملك القدس يسعى لاعادة التحالف السابق مع أمير دمشق (٢)، وقد ادرك نور الدين مدى الاخطار التي تنجم عن ذلك وقرر ان يتخذ خطة جريئة في هذه المرة ، وهي ان يسبق الفرنج ويضم دمشق الى حلب والموصل قبل ان يسبقه الفرنج اليها وتحل الكارثة ، وكان نور الدين يعلم انه اذا تحرك بجيشه للاستيلاء على دمشق فان محمد بورى سوف يطلب مساعدة الفرنج حتما ، وان الفرنج لن يخفوا لمساعدته الا اذا قدم لهم أمير دمشق امتيازات مقابل ذلك وعلى هذا الاساس عمد نور الدين الى سياسة التفريق بين اعدائه لتحقيق ضم دمشق الى حلب دون قتال او حرب ايضا .

وقد بنى نور الدين سياسة التفريق على مرحلتين : المرحلة الاولى التفريق بين الفرنج وأمير دمشق (٣) . والمرحلة الثانية التفريق بين اهالي دمشق ومحمد بورى (٤) . بدأ نور الدين بتحقيق الخطوة الاولى وهي التفريق بين الفرنج وأمير دمشق .

---

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ٥٩

(٢) ابن القلانسي الذيل ص ٣٠٨ ، ابو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٠ ، كانت امارة دمشق قد آلت الى مجير الدين ابق راجع حافظ احمد حمدي (الشرق الاسلامي ص ١٦١) .

(٣) ابن القلانسي الذيل ص ٣١٤ ، ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٨٩

(٤) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ٦٤ ، ٦٦ ، ابن القلانسي ص ١٢

ولتحقيق ذلك عمد نور الدين الى الاجراء التالي : تحرك بجيشه عام ١١٥٠ من حلب الى دمشق وحاصرها ، فما كان من أمير دمشق حتى استنجد بالفرنج على ان يعطيهم مدينة انطاكية مقابل هذه المساعدة(١) ، وعلى هذا الاساس تحرك جيش الفرنج الى دمشق . فلما وصل الفرنج الى دمشق انسحب نور الدين عنها باتجاه حلب دون قتال فقام الفرنج يطالبون مجير الدين أمير دمشق(٢) بمدينة انطاكية تنفيذا للاتفاق(٣) ، ولكنه رفض اعطاء المدينة لان نور الدين انسحب دون حرب ، فعاد الفرنج الى فلسطين غاضبين(٤) .

وما كاد الفرنج يرجعون الى فلسطين حتى عاد نور الدين الى دمشق وحاصرها من جديد ، فعاد مجير الدين وطلب مساعدة الفرنج ، فرفض الفرنج العودة واستحكم الخلاف بين الطرفين ، الامر الذي ارغم مجير الدين على طلب الصلح مع نور الدين عام ١١٥١(٥) ، وبذلك نجح نور الدين في تحقيق المرحلة الاولى وهي التفريق بين الفرنج والامير مجير الدين .

ثورة دمشق

وتحقيق الوحدة السورية الشاملة

بعد ان نجح نور الدين محمود في التفرقة بين الفرنج وبين امير دمشق « مجير الدين » بفسخ التحالف العسكري المعقود بينهما وارغام

---

(١) اتابكة الموصل ص ١٩١ ، ابن الاثير ج ١١ ص ٨٩

(٢) كانت الامارة في دمشق قد انتقلت الى مجير الدين محمود ابن طفتيكن (رجع الشرق الاسلامي لاحمد حافظ ص ١٦١ ، راجع اتابكة دمشق في آخر هذا الكتاب) .

(٣) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٨٩

(٤) ابن القلانسي الذيل ص ٣١٤

(٥) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ٦٨ — ٦٩

امير دمشق على طلب الصلح معه والاشتراك بجانبه في قتال الحملة الصليبية الثانية وارغام الصليبين على الانسحاب عن اسوار دمشق وتبديد خطرها الذي هدد كيان الامة العربية وعرضها الى كارثة محققة كما تقدم .

شعر نور الدين في هذه الاثناء ان « مجير الدين » يسعى لاعادة التحالف العسكري مع الفرنج بصورة سرية من جديد ، وذلك لضمان عدم قيام نور الدين محمود بمحاولة جديدة لضم دمشق الى حلب والموصل (١) . وفي عام ١١٥٤ كتب « مجير الدين » الى « بلدوين » ملك القدس وأبان له الاخطار التي ستحيق بدولة الفرنج اذا سقطت دمشق بيد نور الدين (٢) ، كما تعهد « مجير الدين » لملك الفرنج ان يقدم للحملة الصليبية الآتية من القدس لمساعدته ضد نور الدين محمود ، جميع ما تحتاجه الحملة من تموين ومهام ، وهنا قرر نور الدين محمود تنفيذ المرحلة الثانية من خطته ، وهي التفريق بين مجير الدين وبين الشعب العربي في دمشق الذي يجهل حقائق ارتباطات اميره مع الفرنج ألد أعدائه ، تلك الارتباطات التي تقوم على عرقلة تكتل الامة العربية في كتلة سليمة والنهوض لقتال الفرنج اعداء الامة العربية بأسرها . وقد أظهر مجير الدين أمير دمشق غباوة فاحشة في تفهم نفسية الشعب العربي وغضبه على الفرنج بعد كارثة فلسطين .

ولتحقيق التفريق ، قرر نور الدين محمود استدراج مجير الدين الى الاعتراف بتحالفه الصريح مع الفرنج ، وذلك لنشره على سكان دمشق لتأليب الرأي العام ضد مجير الدين الذي يتحالف مع أعدائهم . ولتحقيق ذلك كتب نور الدين الى مجير الدين كتابا يطلب فيه ارسال

---

(١) اتابكة الموصل ص ١٩٠

(٢) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ٧٠

الف خيـال لنجدة الجيش المصري الذي كان الفرنج يحاصـرونه في عسقلان(١) ، وذكر نور الدين في كتـابه عمدا مـا يشعر مجير الدين بالتهديد . (ذكر نور الدين انه اذا امتنع مجير الدين عن نجدة الجيش المصري في عسقلان ، فان قوات نور الدين ستأخذ المهمة على عاتقها . وفي حال معارضة مجير الدين لمرور قوات نور الدين من دمشق الى عسقلان فان قوات نور الدين قادرة على الوصول الى عسقلان بالقوة لنجدة الجيش المصري المحاصر هناك) . وقد نجح نور الدين بجعل مجير الدين ان يعترف في تحالفه مع الفرنج صراحة الى حد بعيد ، فقد اجاب مجير الدين على كتاب نور الدين : (سيوافينا الفرنج بما يعيننا على دفعك(٢) ، فأمر نور الدين بنشر هـذا الكتاب على أهالي دمشق مع شروط حلف مجير الدين مع الفرنج التي تنص على تقديم المـواد الغذائية للفرنج القادمين لمحاربة جيوش نور الدين . وقد أحدث نشر هذا الحلف رد فعل سيىء في سكان دمشق ، اذ ارتفعت اسعار المواد الغذائية وقامت اضطرابات ضد مجير الدين في دمشق(٣) . وبعد ذلك أمر نور الدين باحداث مقاطعـة اقتصادية بين حلب ودمشـق وذلك كي لا تتسرب المواد الغذائية الى الفرنج حلفاء مجير الدين . وقد احدثت هذه المقاطعة أثرها بين السكان ، فقام العامة ونهبوا العنابر والاسواق ، كما قامت المظاهرات تهتف بسقوط مجير الدين في شوارع دمشق(٤) . وبذلك نجح نور الدين بالتفريق بين الشعب ومجير الدين بعد فضح مؤامراته واحلافه العسكرية مع الفرنج .

---

(١) راجع نص هذا الكتاب في ابن المقدسي « تاريخ دمشق » ص٣٠٩

(٢) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ٦٤

(٣) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ٦٧

(٤) اتابكة الموصل ص ١٩١ ، ابن الاثير ج ١١ ص ٨٨

وفي عام ١١٥٤ تقدم نور الدين بجيشه من حلب وحاصر دمشق قبل ان يصل الفرنج للنجدة وتسلق رجاله السور وتلقاهم سكان دمشق من الداخل وفتحوا الباب الشرقي وباب توما ، ودخل جيش نور الدين دمشق دون ان تراق قطرة دم واحدة(١) ، وقد كان الرأي العام بجانبه بأجمعه .

وهكذا نجح نور الدين محمود بتوحيد دولة الموصل وامارة الرها ودولة حلب ودولة الشام وحوران وجعل منها دولة عربية موحدة خالية من الاستعمار أخذ يعدها للاجهاز على دولة الفرنج في فلسطين والقضاء عليها .

الوحدة بين سورية ومصر
الاسباب الاستراتيجية والقومية التي فرضتها

اذا امعنا النظر في الفترة التي حدثت بها الحروب الصليبية نجد ان هذه الحروب وقعت في الفترة التي يطلق التاريخ عليها (عصر الفروسية) اي ان الحصان كان فيها أداة الحرب الرئيسية كالدبابة في عصرنا الحاضر بلا منازع . وكانت قيمة المعارك ونتائجها تقاس بعدد الخيول او الفرسان الذين يخوضونها ، وكان الفرنج بحاجة ماسة الى الخيول والرجال بصورة مستمرة ، وذلك لسد الصفوف ضد الهجمات المتواصلة مع العرب من حدود مصر في عسقلان جنوبا الى مدينة انطاكية شمالا التي كادت ان تكون مستمرة بصورة متواصلة . وكان الفرنج يعتمدون على طريقين لمدهم بالخيول والرجال والمهمات من اوربا في ذلك الوقت، الاول هو الطريق البري الذي يمر من آسيا مارا في سلسلة جبال طوروس ثم انطاكية ثم دولة الفرنج(٢) وهو الطريق الذي سلكه الفرنج

---

(١) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ٧١

(٢) هذا هو الطريق التاريخي القديم الذي يصل بين اوروبا وآسيا الذي يمر من مضيق (بيلان)

في الحملتين الصليبيتين الاولى والثانية كما هو معلوم(١) • اما الطريق الثاني فهو طريق البحر وهو يعتمد على موانىء انطاكية وطرابلس وصور وعكا(٢) • وكان طريق البحر أقل أهمية من الطريق البري بدليل ان الحملتين الاولى والثانية سارتا على طريق البر من البداية الى النهاية • وكان الفرنج كلما تقدم بهم الزمن في فلسطين كلما شعروا بحاجتهم الماسة الى الاحتفاظ بجيش كبير وذلك لعدم استطاعتهم الحصول على صلح مع نور الدين • وكانت حاجتهم الى الجيش تزداد كلما زادت الاقطار العربية المندمجة في دولة عربية واحدة ، الامر الذي جعلهم ان يعتمدوا على اوربا لوحدها لمدهم بالمعدات ولوازم الحرب طوال مدة الحرب الصليبية ، وهذا ما جعل الطرق البرية والبحرية تلعب دورا خطيرا في حياة هذه الدولة المحاطة بأقطار تكن لها العداء وتتحفز دوما للوثوب عليها •

ولما أتم نور الدين توحيد دولة الموصل وأمارة الرها ودولة حلب ودولة دمشق وحوران أخذ يفكر هو وصحبه بمهاجمة دولة الفرنج والقضاء عليها • وقبل ان يقدم نور الدين على تنفيذ هذه الخطوة وجد انه اذا قام بهذه الحركة وفتح القدس رأسا ، فمن المحقق ان دول اوربا بأسرها كفرنسا وايطاليا وانجلترا والمانيا وروسيا وغيرها سوف تهب لنجدتها من جديد وتقوم بارسال حملة صليبية جديدة لاسترجاعها كما فعلت حين استعاد العرب امارة الرها حيث قامت اوربا باعداد الحملة الصليبية الثانية لاسترجاعها كما تقدم (٣) ، لذلك قرر نور الدين محمود

---

(١) راجع الحملة الصليبية الاولى والثانية من مختلف المصادر .

(٢) احاط الصليبيون هذه الموانىء بقلاع فخمة لمحافظتها لا تزال آثارها باقية .

(3) Gilluaume de Tyre, P. 758

سد الطريق الرئيسي بوجه الفرنج وهو الطريق البري الذي سلكه الفرنج في الحملتين الاولى والثانية والذي يمر من دولة بيزنطة (آسيا الصغرى) وسلسلة جبال طوروس ومنها الى دولة الفرنج ، وذلك كي يمنع الامدادات العسكرية التي قد تأتي الى دولة الفرنج عن هذا الطريق في المستقبل ، وهذا ما يفسر سبب قيام نور الدين عام ١١٥٩ بالاستيلاء على جميع الاراضي الواقعة شرق نهر العاصي واحتلال مدينة حارم وقلعتها التي تشرف على هذا الطريق في سلسلة جبال طوروس(١) •
وتذكر المصادر المختلفة ان نور الدين بعد سيطرته على هذا الطريق قرر الاستمرار في التقدم واحتلال ميناء انطاكية ايضا ، وحرمان الفرنج من هذا الميناء القريب الى دول اوربا الوسطى ، ولكنه عدل عن ذلك اخيرا • فقد اظهرت الدولة البيزنطية استعدادها للدفاع عن انطاكية ، فخشي نور الدين ان فعل ذلك ان تنضم دولة بيزنطة الى دولة الفرنج في حلف ضده (٢) ، لذلك اكتفى نور الدين بتهديد خط مواصلات الفرنج البري المذكور وأجل الاستيلاء على انطاكية الى فرصة اخرى • وهكذا يكون نور الدين قد نجح في فرض الحصار الاقتصادي على دولة الفرنج من ناحية البر ولم يبق لها سوى طريق البحر •

لاشك ان استيلاء نور الدين على حارم وتفكيره في الاستيلاء على انطاكية كما تقدم ، اشعر الفرنج ان طريق اتصالهم البري مع اوروبا اصبح معرضا للانقطاع او على الاقل معرضا للتهديد في المستقبل •• فاذا تحقق ذلك فان طوق الحصار الذي ضربه العرب حول دولة الفرنج سوف تستكمل حلقاته وتتعرض دولتهم الى الفناء المحقق دون قتال او حرب •

الامر الذي دعى الفرنج الى التفكير في اسباب وهمية لايجاد مخرج من هذا المأزق الحرج ، لايستند على الحقيقة او الواقع او المنطق في شيء ••

---

(١) ابو الفداء (المختصر) ج ١ ص ٢٦١
(٢) اتابكة الموصل ص ٢٢٤

وهـذا المخرج هو محاولة الاستيلاء عـلى مصر وتكوين امارات واقطاعيات فرنجية على حساب مصر العربية للتعويض عما يحتاجه الفرنج من مقومات الحرب واسبابهـا وذلك احتياطا فيما اذا قام نور الدين باحتلال انطاكية وسد الطريق البري المذكور .

وقد امعن الفرنج في الخيال في ذلك الوقت حتى ان بعض المصادر التاريخية ذكرت انهم فكروا في الاستيلاء على شواطيء افريقيا للاتصال باسبانيـا فاذا سد العرب الطريق الاول لجؤوا للاتصال باوروبا عـن الطريق الثاني .

وتذكر بعض المصادر ان الفرنج افترضوا ان استيلائهم على مصر والموانيء الافريقية سوف يجعل الطريق البحري بين موانيء فرنسا وايطاليا الجنوبية وبين مصر عن طريق الموانيء الافريقية اقصر من الطريق البحري بين موانيء ايطاليا وفرنسا وبين موانيء فلسطين عن طريق قبرص .

ومن جهة اخرى فلعل الفرنج فكروا في اكتساح مصر في ذلك الوقت لاعطاء دولتهم في فلسطين العمق الاستراتيجي الذي كانت تفتقر اليه(١)

اما الحقيقة فهي في اعتقادنا ان الفرنج بعد قيام الوحدة السورية الشاملة كما تقدم شعروا بالرغبة الجامحة التي غمرت نفوس العرب في شتى اقطارهم وامصارهم لتحقيق لوحـدة العربية الشاملة . والتيـار العنيف لطرد الفرنج عن ديارهم .

لقد هال الفرنج واذهلهم السرعة التي تحققت بها وحدة حلب والموصل كما افزعهم استرداد الرها كما اقلقهم تحقيق الوحدة بين دمشق وحلب والموصل . كما هلعوا من ظهور زعماء للعرب اشداء .

كما صعقوا من قيام دولة عربية قوية على حدودهم كانت الى أمد قصير عبارة عن اقطاعيات عديدة ضعيفة مستعمرة ومفككة تنافس بعضها

---

(١) انظر مخطط دولة الصليبيين في فلسطين .

بعضاً ولا تستطيع مقاومتهم • ولا بد ان الفرنج اخــذوا يفكرون في البلدان العربية الاخرى التي ستلبي صوت العرب للاندماج في هــذه الدولة الفتية ، وبذلك تتضاعف الاخطار المحدقة بهم • فهل القاهرة ؟ أم بغداد تتقدم للوحدة مع سورية أولا ؟•

لاشك انها القاهرة ذلك انبغداد وخلفاءها عادوا الى قبضةالسلاجقة القوية • اذاً لماذ لا يقوم الفرنج بسبق نور الدين للاستيلاء على القاهرة وقطع اواصر الصلة والتاريخ واللغة والدين والدم التي تربطهامع سورية ثم تكوين امارات فرنجية في مصر واستخدام مواردها لمحاربة العرب ؟ هذه هي الاوهام والحماقات التي دفعت الفرنج للمجازفة والهجوم على مصر وهي قطع هذه الروابط والصلاة التي ربطها الله برباط لاتنفصم عراه •

اما الدليل المادي الذي اثبت ان تفكير الفرنج لاكتساح مصر كان اوهاما باوهام هوان الفرنج بالرغم انهم وجهوا الى مصر حملات عديدة فانها صدت جميعا وباءت بالفشل الذريع كما سيتضح • وعلى هــذا الاساس فان اهم الاسباب الاستراتيجية والقومية التي فرضت الوحدة بين سورية ومصر في ذلك الوقت هي هذه الروابط الاصيلة العريقــة التي خلقها الله وباركها والتي لا يمكن ان تمتد اليها يــد الانسان او تعترض سبيلها على مدى العصور الى الابد •

قرار الفرنج بمهاجمة مصر

محاولة فك طوق الحصار الاقتصادي عن الفرنج

ومن هذا التاريخ اخذ الفرنج يشعرون بوطأة الحصار الاقتصادي بعد تهديد هذا الطريق ، فقرروا اكتساح مصر لفك طوق الحصار الذي ضربه نور الدين حولهم ، ومن أجل ذلك انتقل مسرح النزاع بين الفرنج ونور الدين من سوريا الى مصر كما سيتضح •

الفصل الخامس

كيف تحققت الوحدة بين سورية ومصر

بدأ الصراع بين مصر والفرنج منذ عام ١٠٩٨ حين نكث الفرنج بعهدهم مع الوفد الفاطمي في مدينة انطاكية وقيامهم بمهاجمة الحامية المصرية في القدس واستيلائهم على المدينة عام ١٠٩٩ وذبح سكانها كما تقدم. وقد استمر العداء الشديد بين المصريين والصليبيين الى عام ١١٥٤ حين قام الفرنج بمحاصرة الحامية المصرية في ميناء عسقلان في جنوب فلسطين لضمها الى الدولة الصليبية كما تقدم وقد ذكرنا كيف هب نور الدين محمود فورا لنجدة الحامية المصرية في عسقلان حينما كان في حلب . وكيف هدد محمد بوري امير دمشق باكتساح بلاده ان لم يقم بارسال الفي خيال لنجدة الحامية المصرية او يسمح لجيشه بالمرور لنجدتها . وفي بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر كانت الجمعيات السرية التي أنشأها الفرس في الدولة الفاطمية لتمزيق وحدة الامة العربية (كدور الحكمة والباطنية) وغيرها التي ذكرناها قد اينعت ثمارها في الاقليم المصري الشقيق كما اينعت ثمارها في الدولة العباسية ودمرتها من قبل كما ذكرنا . وبذلك فان جمعيات الفرس السرية التي كانت تعمل في الخفاء لتحطيم الامة العربية قد نجحت في شطر العالم العربي الى شطرين رئيسيين. وهما المعسكر العباسي والمعسكر الفاطمي ثم دمرت كل منهما على انفراد . وقد بلغت سوء الحالة في مصر في عهد العاضد بالله آخر خلفاء الدولة الفاطمية الذي تولى الحكم عام ١١٦١ . ان حالة الاقليم المصري في ذلك الوقت كانت تشبه حالتها في اواخر عهد عائلة محمد علي السابقة ايام الملك السابق فاروق ان لم تكن اسوأ

منها • فقد انغمس الخلفاء في الترف وبلغ الفساد والانحلال وميوعة الحكم لدرجة ان اصبحت مصر عاجزة عن صيانة حدودها الشرقية مع الفرنج•حتى ان لفاطميين في عهد الخليفة الاخير العاضد كانوا يسدون افواه انفرنج• حتى ان الفاطميين في عهد الخليفة الاخير العاضد كانوا يسدون افواه الحالة في مصر في تلك الفترة تكالب الوزراء على الجاه والسلطة • حتى ان ضرغام بن سواد الوزير الاول للخليفة الفاطمي العاضد بالله آخر خلفاء الدولة الفاطمية لم يتورع عن محالفة (اموري) ملك القدس كي يستعين به على منافسه في الوزارة شاور بن مجير السعدي[٢] كما ان مؤتمن الخليفة العاضد نفسه لم يتورع أيضا ان يكاتب الصليبيين ويطلب منهم القدوم الى مصر واحتلالها[٣] • وبذلك فان وجود اعوان للفرنج في مصر هو الذي شجعهم على غزوها[٤] •

الفرنج يحاولون مهاجمة مصر لفك طوق الحصار الاقتصادي

وقد شجع الفساد والاستكانة التي أدت الى ضعف الجيش المصري الشقيق في ذلك الوقت على قيام الفرنج بمهاجمة مصر • ففي ايلول عام ١١٦٣ تحرك الملك (اموري) ملك القدس بجيشه لاكتساحها بحجة أن مصر امتنعت عن دفع ضريبة كانت مصر تدفعها الى سلفه[٥] • وقد وصلت هذه الحملة الى المديرية الشرقية الحالية ثم واصلت سيرها الى مدينة بلبيس ولكن الجيش المصري خرب الجسور المقامة على النيل •

---

(١) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ١٠٣
(٢) الاتابكة ص ٢١٦ ، ابن الاثير ج ١١ ص ١٣٤
(٣) الذهبي ص ١٤١
(٤) كشأن الاستعمار في هذا العصر ان يجد له اعوان في البلاد التي يريد استعمارها
(٥) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ١٠٢ ـ ١٠٣

كما ان فيضان النيل حال دون نصب جسور جديدة مما ارغم جيش الفرنج على الانتظار ريثما ينتهي الفيضان كي يستأنف الهجوم (١) .

لم تنم عين نور الدين عن ذلك كله فانتهز فرصة مغامرة اموري وغياب جيشه عن فلسطين وقام بمهاجمة الفرنج باتجاه مدينة حارم في شمال الاقليم السوري لكي يرغم الفرنج للارتداد عن مهاجمة الاقليم المصري . ومن جهة اخرى ليعزز سيطرته التامة على الطريق البري الذي يصل دولة الفرنج باوروبا عن طريق سلسلة جبال طوروس الذي شرحناه . وفعلا ارغم نور الدين محمود بهذه الحركة جيش الفرنج للانسحاب عن مصر والعودة للدفاع عن حدود بلاده المهددة وهكذا نجت مصر من غزوة الفرنج الاولى .

لا شك ان السبب الحقيقي الذي جعل الفرنج ان يقوموا بمهاجمة مصر في هذا التاريخ هو الرغبة في فك طوق الحصار الاقتصادي الذي فرضه نور الدين محمود حول دولتهم كما تقدم ومما يؤيد هذا الزعم ويدعمه الكتاب الذي كتبه الملك اموري ملك القدس الى لويس السابع ملك فرنسا وذلك حينما كان الملك اموري ينتظر انتهاء فيضان النيل لاستئناف الهجوم على الاقليم المصري كما تقدم . فقد شرح الملك اموري في هذا الكتاب الى لويس السابع (ثروة مصر وخيراتها ورغد عيشها) ويطلب منه في هذا الكتاب (نجدات فرنسية لاتمام فتح مصر لخدمة اغراض الصليبية كذا (٢) .) وهذا الكتاب يثبت بصورة قاطعة ان الفرنج قصدوا من وراء غزو مصر الاستفادة من ثروة الاقليم المصري لفك طوق الحصار الاقتصادي الذي فرضه نور الدين على الدولة

---

(١) الاتابكة ص ٢٠٧ ، ابن الاثير ج ١١ ص ١٢٩

(2) Schlumberger p. 41, 48

الصليبية بعد تهديدها الطريق البري بوجههم من جهة الاقليم السوري هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد اراد الفرنج من غزو مصر ايجاد طريق جديد يمر من صقلية وشمال افريقيا ومصر ومنها الى فلسطين وذلك للاستعاضة بهذا الطريق عن الطريق البري الذي سده نور الدين بوجههم الذي يمر من بيزنطة (آسيا الصغرى) الى دولة الفرنج مارا من سلسلة جبال طورس وسلكه الفرنج مرتين في الحملة الصليبية الاولى والثانية.

تمسك مصر بعروبتها

وفي عام ١١٦٤ تعقدت الامور بالاقليم المصري من جراء النزاع بين الوزيرين ضرغام وشاور كما هو معلوم . ومن الغريب جدا ان المؤرخين جميعا اكتفوا عند ذكر هذا النزاع بأنه نزاع كان على السلطة فقط . ولم يكشفوا لنا عن الخفايا التي كانت تكمن خلف طيات هذا النزاع والدوافع الحقيقية التي كانت تدفع الشعب المصري فتجعله ان يناصر ضرغام مرة واخرى يثور عليه ويناصر شاور . على حين ان الدوافع الخفية التي كانت تحرك تصرفات الشعب المصري بهذا النزاع تكشف لنا بوضوح عن مدى تعلق الشعب المصري الشقيق بعروبته ووعيه ونضوجه وكفاحه في هذا السبيل . وبفضل هذا النضوج والكفاح تحققت الوحدة العربية الشاملة بين مصر وسورية العربية في ذلك الوقت . وأصبحت الامة العربية كتلة واحدة متحررة يحسب لها حسابها .

لقد تعرض الشعب العربي المصري الشقيق في ايام الفرنج الى نفس الازمات التي تعرض لها في عهد الملك السابق فاروق بعد كارثة فلسطين على ايدي الصهاينة تماما وسبب هذه الازمات واحد في العصرين أيضا

وهو الحكام المستهترون والوزراء الفاسدون وقد تمخض فساد الحكم في ذلك الوقت عن فشل الجيش المصري في القضاء على خطر الفرنج . وذلك حين قام الملك اموري عام ١١٦٣ بمهاجمة مصر كما تقدم . ولم ينقذها منه سوى فيضان النيل وقيام نور الدين محمود بمهاجمة حدود الفرنج الشمالية في مدينة حارم كما تقدم .

ويتفق المؤرخون جميعا ان ضرغام بعد ان نجح في خلع شاور من الوزارة اخذ يتقرب من الفرنج ويتودد اليهم . وانه في نيسان عام ١١٦٤ عقد حلف عسكري معهم لنجدته اذا حاول نور الدين التدخل بشؤون مصر (١) . ويتفق المؤرخون جميعا أيضا ان شاور سافر في تشرين عام ١١٦٣ الى دمشق وطلب مساعدة نور الدين محمود لينجده بحملة عسكرية يخلص بها مصر من الفرنج وضرغام معا . وان جيش نور الدين تحرك الى مصر بقيادة اسد الدين في مايس ١١٦٤ لنجدة شاور (٢) وهذه الاحداث والتواريخ جميعا تضع امامنا الحقائق التالية بصورة واضحة.وهي ان كلا من ضرغام وشاور اتخذ لنفسه حلا يتضارب مع الآخر في حل ازمة مصر الناتجة عن تهديد الفرنج لحدودها الشرقية فضرغام يرى الحل بمسايرة الفرنج ومحالفتهم وشاور يرى الحل بتحقيق الوحدة العربية مع سورية اولا ثم القيام بمهاجمة الفرنج . وبعد طرد الفرنج التخلص من الوحدة ايضا ، اما الكلمة الاخيرة فقد كانت للجيش والشعب المصري الذي تمثلت عروبته جليا في هذا الصراع كما سيتضح ذلك .

---

(1) Gilluaume de tyre, p. 822

(2) Stevenson, p. 186, notes 162

ولما وصلت جيوش نور الدين بقيادة اسد الدين التي طلبها شاور الى مدينة بلبيس في مصر في مايس ١١٦٤ كما تقدم . قابله الجيش المصري بقيادة ناصر الدين اخو ضرغام في تل بسطة (١) وقدتجلت عروبة الجيش المصري ووعيه في هذه المعركة . ذلك ان الجيش المصري رفض قتال الجيش السوري القادم من دمشق حينما صدرت له الاوامر بذلك ثم انقلب قادته وجنوده على ضرغام حليف الفرنج وانضموا الى جيش سورية القادم لمحاربة الفرنج عدوهما المشترك ثم زحف الجيشان المصري والسوري الى القاهرة . فقام ضرغام يحرض سكان القاهرة للمقاومة . ولكن الشعب المصري الواعي رفض هو ايضا اطاعة ضرغام وثار عليه الاهالي وقتلوه في الشوارع عندما كان يحاول الهرب من القاهرة (٢) والى القارىء الكريم ما جاء في كتاب الروضتين (٣) لشهاب الدين المقدسي عن معركة تل بسطة وثورة القاهرة على ضرغام حليف الفرنج (..... وأمر ضرغام الامراء فخرجوا وعليهم المقدم ناصر الدين اخو ضرغام حتى احاطوا بالتل الذي كان اسد الدين نازلا عليه . ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر وانهم قد ملكوا عليه الوهاد وسدوا منافذ الطرقات قال لشاور . ياهذا لقد أرهقتنا وغررت بنا حين قلت انه ليس بمصر عساكر فجئنا بهذه الشرذمة . فقال شاور : اما الامراء فان كتبهم عندي وعهودهم معي وسترى ذلك اذا لقيناهم . ثم قال : اريد ان تأمر العساكر بالاستعداد والركوب ففعل . ونهاهم شاور عن القتال . ووقف الفريقان متقابلين من غير حرب ثم ضرب جند مصر الخيم الصغار وخلعوا السلاح ونزلوا عن الخيول ... الخ ..

(١) قرب الزقازيق الحالية
(٢) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ١٠٦
(٣) ص١٣٢ ـ ١٤٤ . رفيق التميمي الحروب الصليبية ص ١١٨

ويصف رفيقي التميمي في كتابه (الحروب الصليبية) صفحة (١١٩) حركة جيش نور الدين الى القاهرة بعد وحدة الجيشين السوري والمصري في تل بسطة فيقول : — (وواصل اسد الدين السير حتى بلغ القاهرة . فقد حاول ضرغام اثارة اهالي القاهرة لمقاومة اخيه . ولما لم يلبه احد هرب خارجا من باب زويلة . فصاح به الناس وشتموه وتتبعوه الى قرب جامع السيدة نفيسة وهناك قتلوه . وبقي يومين ملقى على الارض ثم حمل ودفن في القرافة ....) الخ .

ومعركة تل بسطة وثورة القاهرة ضد ضرغام ليس لها الا تفسيرا واحدا هو وعي الاقليم المصري وعروبة جيشه وشعبه الاصيلة وادراكهما العميق ان مصر وسورية والعرب اجمعين امة واحدة في جسم واحد ، هي القومية العربية . وان الفرنج في فلسطين هم العدو المشترك . هذه هي الدوافع الخفية التي دفعت جيش مصر وشعبها لخلع ضرغام في ذلك الوقت لان شاور كان مدركا للنزعة العربية الاصيلة في جيش مصر وشعبها . فلما قدم من دمشق على رأس جيش عربي التف حوله الجيش والشعب المصري وخلعوا ضرغام حليف الفرنج وعميل المستعمر .

تعاون وزراء الفاطميين مع الصليبيين يكلفهم ارواحهم

ومن المدهش حقا ان يعمد شاور الى محالفة الفرنج هو ايضا ويرتكب نفس الخطيئة التي ارتكبها ضرغام من قبل وكلفته حياته بعد معركة تل بسطة . فيكلفه هذا التحالف حياته هو الآخر ايضا كما سيتضح . فقد احتال شاور على أسد الدين الى ان اخرجه خارج القاهرة . ثم ارسل اليه يأمره بالعودة الى دمشق وهدده بما سيكون من امره اذا أصر على البقاء (١) فلما رأى اسد الدين ذلك احتل بلبيس وحاصر فيها . فقام

---

(١) ابو شامه الروضتين ١٣٠ — ١٤٠

شاور واستنجد بالفرنج • وفي مايس ١١٦٤ تحرك (اموري) بجيشه الى مصر لنجدة شاور طمعا بامتلاك مصر • غير ان اموري لم يشأ ان يتناول اجره مؤخرا فأخذ يستلم من شاور عن كل مرحلة يقطعها الف درينا • فبلغ ما تسلمه سبعة وعشرين الفا الى ان بلغ الحدود المصرية لقاء قدومه لقتال الجيش السوري (١) ومضى شاور لمقابلة حليفه الصليبي لتنسيق الخطط معه • وما لبث اسد الدين ان وجد نفسه محوطا في بلبيس • غير انه قاوم مدة ثلاثة اشهر من آب الى تشرين الاول عام ١١٦٤ وهنا داخل اليأس نفس اموري وقرر فك الحصار والعودة الى فلسطين لقرب حلول فصل الشتاء وتم الاتفاق بين اموري واسد الدين على ان يغادر كل منهما ارض مصر • فغادرها اسد الدين وتبعه اموري في تشرين ثاني عام ١١٦٤ وقبل ان يغادر اموري ارض مصر عقد شاور سرا معاهدة مع الفرنج لارسال حملة فرنجية الى مصر لمساعدته فيما اذا عاد نور الدين الى الاراضي المصرية (٢) •

خطة نور الدين محمود للانتصار على الفرنج في الاقليم المصري

ولما علم نور الدين محمود بما آلت اليه حملته في مصر واستعانة شاور بالفرنج لاخراج قائده اسد الدين وبخاصة أمر المعاهدة السرية الجديدة بين شاور وبين الفرنج قدر نور الدين محمود الموقف كما يلي :

ان الفرنج لابد عائدون لمهاجمة مصر في جولة ثانية عاجلا أم آجلا • فاذا قدر له الفشل في هذه الجولة فان كفة الفرنج سوف ترجح حتما • ثم ينقضون على الشام وحلب وتحل الكارثة بالامة العربية بأسرها • وكان نور الدين يرى ان مسألة مهاجمة الفرنج لمصر في جولة ثانية هي

---

(١) الروضتين ص ١٢٥
(٢) رفيق التميمي الحروب الصليبية ص ١٢٠
(2) Gilluanme de tyre, p. 904 — 910

مسألة وقت فقط • وان النصر لمن يستغل هذا الوقت • وقدر ايضا انه اذا ارسل جيشا من الشام لسبق الفرنج وانقاذ مصر • فان هذا الجيش يجب عليه ان يقطع صحراء سينا التي تزيد على مائة ميل وتفصل سوريا عن مصر والحجاز ويسيطر عليها الفرنج • وقدر نور الدين أيضا انه يحتاج لمدة سنة على الاقل بعد الاستيلاء على مصر كي يستطيع تنظيم جيشها واسطولها فاذا هاجمه الفرنج قبل هذا الوقت فانهم سوف ينتصرون عليه حتما وتحل الكارثة • وكان نور الدين من الزعماء الذين يعدون انفسهم للنوازل قبل وقوعها • ويحتاطون الى الكوارث قبل حدوثها • وكان من العباقرة الذين لم تقف عبقريتهم على الامور السياسية فقط بل كان استراتيجيا من الطراز الاول • ولم يلبث ان ابتكر خطة رائعة للخلاص من هذا الموقف الحرج استطاع بها ان يستولي على مصر ويكسب الوقت المطلوب لاعادة تشكيل الجيش • والاسطول في الاسكندرية ودمياط لاتمام الحصار الاقتصادي على الفرنج من جهة البحر أيضا كما سيتضح •

وقد استطاع نور الدين محمود تحقيق جميع هذه المشاريع الواسعة بقوات ضئيلة جدا • وكانت خطة نور الدين للانتصار تتألف من شطرين • الشطر الاول ينفذه اسد الدين في مصر • والشطر الثاني ينفذه هو في سوريا •

معركة البابين(١)

انظر المخطط

وفجأة ابان زمهرير كانون الاول وفي غفلة من الفرنج عام ١١٦٧ وقف نور الدين وخلفه اسد الدين وصلاح الدين الايوبي امام كتائب الجيش العربي السوري المتراصة في سكون عميق في مدينة دمشق استعدادا لتنفيذ الشطر الاول من الخطة •

---

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ٤٥

كان هذا الجيش عبارة عن الفي خيال فقط حين صاح به نور الدين قائلا (... ستذهبون الى مصر لتكيلوا ضربة قاصمة الى الفرنج) .

اجتاز هذا الجيش الصغير شرقي الاردن وعبر صحراء سينا متحملا شدة العواصف الرملية التي وصفها ابن الاثير (انها أرغمت الجند على السير واعينهم مغمضة وافواههم مسدودة) الى انوصل هذا الجيش مصر وعبر النيل وعسكر في الجيزة مقابل الفسطاط دون ان يشعر الفرنج او يعلموا عنه شيئا وبذلك حقق نور الدين مفاجأة استراتيجية كاملة على الفرنج مكنته من الانتصار التام في معركة البابين كما سيتضح . لم يكد شاور في مصر يعلم بوصول جيش نور الدين حتى كتب الى اموري ملك الافرنج يستحثه على القدوم لنجدته [1] . فعقد اموري مجلسا حربيا في نابلس حضره اشراف الصليبيين ومقدموهم وعرض عليهم اموري ما يهدد دولة الفرنج من الخطر الجسيم ان وقعت مصر بيد نور الدين . فوافقوا على النهوض للحرب بالاجماع . وغادر اموري فلسطين على رأس جيشه فورا لعله يلقى جيش نور الدين قبل ان يبلغ الحدود المصرية . ولكنه اضطر للعودة لان جيش نور الدين سبقه اليها . وفي ٣٠ كانون الثاني عام ١١٦٧ خرج الفرنج قاصدين مصر بعد ان تجهزوا للحملة تماما ولما وصلوا الى مصر استقبلهم شاور ودلهم على الطريق الى القاهرة [2] وعسكروا قرب الروضة على شاطىء النيل الايمن مقابل جيش نور الدين لا يفصلهما الا النهر فقط . وحين وصل الفرنج مصر كتب اسد الدين الى شاور الكتاب التالي الذي جاء نصه في كتاب الروضتين ص ١٢٩ كما يلي :

(احلف لك بالله الذي لا اله الا هو وبكل يمين يثق بها المسلم من

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٤٥
(٢) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ١٠٨

اخيه المسلم انني لا اقيم ببلاد مصر ولا اعود اليها ابدا ولا ادع احدا من التعرض لها • ومن عارضك فيها كنت معك البآ عليه • وما أؤمل منك الا نصرة الاسلام فقط (¹) ان العدو قد حوصر بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة • وخلاصه امر عسير واريد منك ان نجتمع انا وانت عليه • وننتهز الفرصة التي واتتنا ضده فيه وجعلته غنيمة لنا • فنستأصل شأفته ونخمد ثائرته • وما اظن انه قد يتحقق للاسلام مثل هذه الغنيمة ابدا) • وكان جواب شاور على هذا الكتاب ان قتل الرسول واعلم الفرنج بما يريده اسد الدين منه (٢) • ثم شرع اموري باقامة جسر من المراكب وجذوع النخيل على النيل ما بين الروضة والجيزة وقد تركهم اسد الدين ينصبون الجسر حتى اذا توسطوا النهر اخذ يقذفهم بالنبال وارغمهم على الارتداد وهكذا استمرت معركة الجسر شهرين دون ان يستطيع الفرنج نصب هذا الجسر • وخلال هذه الفترة وصل الى الفرنج نجدات هامة من القدس وقرروا عبور النهر والقضاء على قوات اسد الدين القليلة فورا وشرعوا بعبور النهر ليلا • أما اسد الدين فقرر ان لا يخوض مع الفرنج معركة حاسمة نظرا لقلة قواته فقرر الانسحاب الى الجنوب باتجاه الصعيد لاطالة خط مواصلات الفرنج والعثور على ارض صالحة تمكنه من الانتصار على عدوه المتفوق عليه تفوقا ساحقا واستمر في الانسحاب والفرنج يطاردونه الى ان بلغ محل دفاعي مناسب يوم ١٨ نيسان عام ١١٦٧ يقال له البابين جنوب (المنية) الحالية بعشرة اميال فقرر قتال الفرنج فيه •

---

(١) لا شك ان المقصود بالاسلام هنا العرب ايضا

(٢) ابو شامه : الروضتين ص ١٦٨

اجداد الرئيس جمال عبد الناصر
ينجدون الجيش العربي السوري في معركة البابين

وقد افاد اسد الدين من هذا الانسحاب جدا فقد استطاع ان يعوض ما فقده من التموين بواسطة اهالي الصعيد وفي كتاب الاتابكة ان قبائل بني هلال وبني كنانة العربية ساعدته مساعدة كبيرة بالمال والسلاح والرجال • ومن وصف (وليم الصوري) مؤرخ الحرب الصليبية • (ودور نبرغ) وتاريخ الاسلام الذهبي (١) ان موقع البابين الذي جرت فيه هذه المعركة الحاسمة عبارة عن فسحة منبسطة تستوعب جيش أسد الدين فاذا تمركز فيها اسند احد اجنحته على نهر النيل واسندالآخر على تلول وعرة (انظر المخطط التقريبي للمعركة) •

وقد حشد نور الدين قواته في هذه الفسحة جاعلا القلب وميمنته ضعيفين بقيادة صلاح الدين الايوبي • وامره بالتظاهر بالانكسار والانسحاب حين هجوم الفرنج وجعل ميسرته قوية بقيادته • ثم تظاهر اسد الدين امام الفرنج بأنه هو شخصيا يقود القلب • وان صلاح الدين الايوبي يقود الميسرة • وذلك ليخدع الفرنج ان القلب قوي والميسرة ضعيفة (على اعتبار ان القائد الاكبر يقود القوات القوية الكبيرةكما هو مألوف في حروب ذلك العصر) •

ويقول وليم الصوري ان الفرنج حين قاموا بالهجوم وجهوا (محور جهدهم) الى القلب على اعتبار انه اقوى الاجزاء فاذا غلب هذا الجزء وانسحب من المعركة فان باقي القوات تغلب وتنسحب حتما • ولما وجه الفرنج محور الجهد الى القلب أخذ صلاح الدين بالانسحاب حسب الخطة ، واستمر فيه الى ان اصبحت مؤخرة جيش الفرنج امام الجناح الايسر القوي الذي يقوده اسد الدين • وعند ذلك شرع اسد الدين

---

(١) تاريخ الاسلام ص ١٣٧ (1) Derenbourv p. 311 note 6

(٢) راجع كتاب الروضتين ١٢٠ — ١٢٨ . ابن الاثير ج ١١ ص ١٤٥ الاتابكه ص ١٣٧

بمهاجمة الفرنج من المؤخرة مما ادى الى حصر قوات الفرنج بين قوات صلاح الدين الايوبي من الامام وقوات اسد الدين من الخلف مما ادى الى افناء قسم كبير من جيش الفرنج واسر (هيج القيصري) قائد القلب وقائد الجناح الايسر لجيش الفرنج ، ولم ينج الملك اموري من الاسر الا بأعجوبة .

واذا دققنا النظر في سير المعركة من حيث فكرة الانسحاب الى الصعيد لتطويل خط مواصلات العدو ، ومن حيث استناد اجنحة الموضع على عوارض طبيعية تحمي اجنحة المدافع ومن حيث الخطة التي طبقها اسد الدين وانتصر بها على جيش الفرنج أثناء المعركة نجد ان هذه المعركة تشبه الى حد كبير معركة العلمين في الحرب الاخيرة حتى بنتائجها العسكرية على الطرفين المتحاربين .

ثورة الاسكندرية انتصارا للعروبة

وفي هذه الاثناء ثار اهالي الاسكندرية ضد شاور لاستعانته بأعداء وطنهم وقوميتهم وكتبوا لاسد الدين كما يقول (ابو شامة) ص ١٣٠ يخبروه (ان السلاح واصل) ويطلبون منه الحضور لتسليمه المدينة وانقاذهم من شاور ، الامر الذي جعل اسد الدين ان يترك مطاردة الفرنج بعد معركة البابين ويتوجه لاحتلال الاسكندرية (وبعد دخولها أناب أسد الدين عنه صلاح الدين في الاسكندرية وتوجه الى (قوص) لجمع الجزية) . وقر قرار الفرنج وشاور محاصرة الاسكندرية برا وبحرا للانتقام من سكانها وبعد شهر من الحصار قلت في الاسكندرية الاقوات وشعر أهلها بالضيق بعد أن اشرفوا على الموت جوعا .

نور الدين ينفذ الشطر الثاني من خطته

في هذه اللحظة الحاسمة كان نور الدين قد شرع بتنفيذ الشطر الثاني من خطته في سوريا ، فقد هاجم قلاع الفرنج المتاخمة للحدود السورية وهي قلعة طرابلس وقلعة حصن الاكراد وقلعة العريمة وقلعة

صافيتا وقلعة بانياس (١) مرة واحدة وفتح في حدود بلاد الفرنج عدة ثغرات واسعة • وحين وقف نور الدين على قلعة بانياس القريبة من دمشق على الحدود السورية الفلسطينية يذكر انه قال : (••• ايها الناس ان امضى سلاح بيدكم الآن لدحر العدو هو التخريب ، دمروا الحصون والبيوت واتلفوا المزارع وخربوا الطرق واستاقوا الاسرى وابيدوا الحرث والنسل) • (ولو سار العرب على هذه الخطة وهي خطة التخريب والتدمير ضد اسرائيل فقط منذ البداية لكان الآن قد مضى على هلاك اسرائيل عدة سنوات دون قتال او حرب ، ذلك ان هذا العمل ينهكها انتصاديا كما انهك دولة الفرنج من قبل وهذا أشد ما تخشاه اسرائيل على حياتها في هذا العصر ايضا) •

ولما علم الملك اموري بهجوم نور الدين محمود على قلاع الفرنج على الحدود السورية الفلسطينية ، وتخريبها كما تقدم اضطر لفك الحصار عن الاسكندرية فورا وعقد هدنة مع اسد الدين واسرع بمغادرة الاراضي المصرية الى فلسطين لترميم قلاعه المخربة بفلول جيشه المهزوم (٢) •

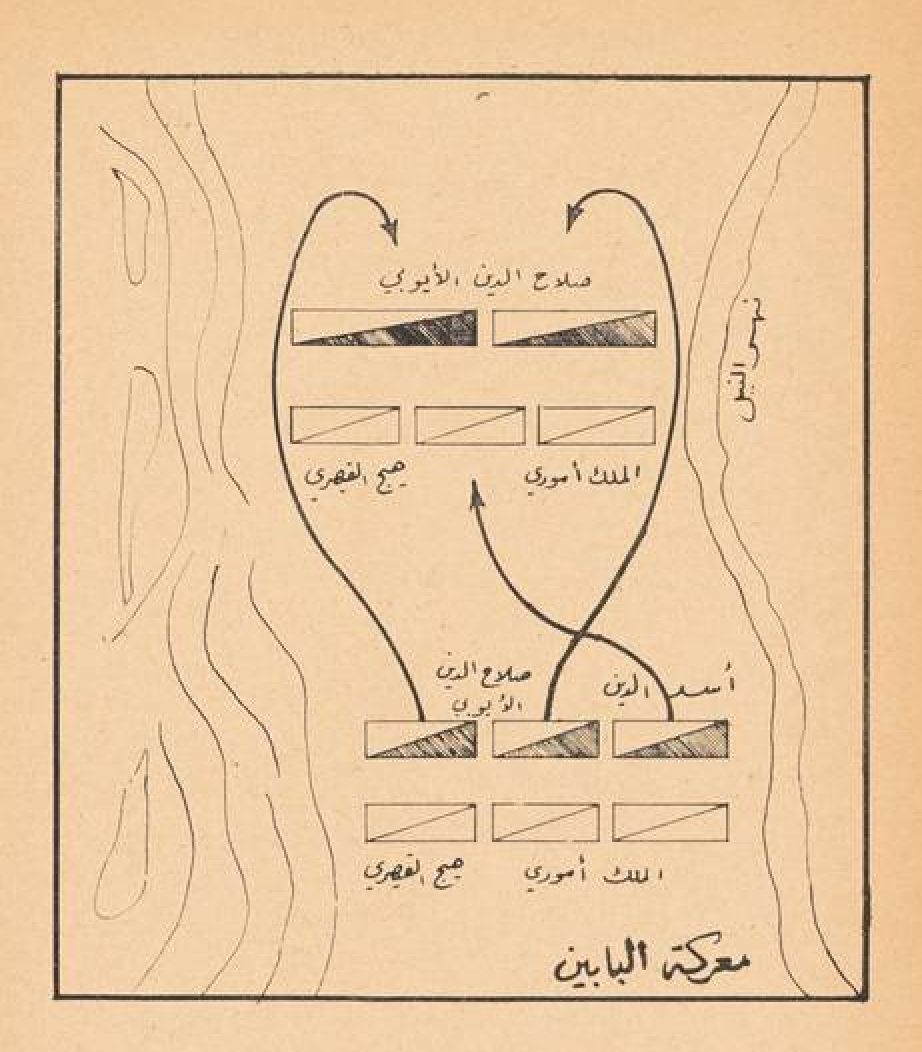
كان الالفا خيال الذين ارسلهم نور الدين الى مصر بمثابة طعم اوقع جيش الفرنج بأسره في فخ محكم قضى عليه في معركة البابين كما تقدم• وبذلك يكون نور الدين قد حقق اهداف خطته وهي تدمير جيش الفرنج في مصر والاستفادة من الوقت اللازم لاعادة تنظيم جيشهم واسطولهم وقد انشغل الفرنج فعلا في ترميم قلاعهم بعد رجوعهم من مصر من نيسان ١١٦٧ الى تشرين عام ١١٦٨ (٣) وكان نور الدين خلال هذه

---

(١) الروضتين ص ١١١ . الذهبي ص ٢٣٥

(٢) تم الجلاء عن مصر في آب ١١٦٧

(٣) تاريخ قيام اموري بمهاجمة مصر للمرة الثالثة مما يدل ان الصليبيين انشغلوا بترميم قلاعهم من تاريخ انسحابهم عن مصر (آب ١١٦٧) الى تاريخ حركتهم للمرة الثالثة على مصر (تشرين ١١٦٨) .


صلاح الدين الأيوبي
نهر النيل
جيح القيصري
الملك أموري
صلاح الدين
الأيوبي
أسد الدين
جيح القيصري
الملك أموري
معركة البابين

المدة قد اعاد تنظيم جيش الاقليم المصري وبناء اسطول استعدادا للجولة الثانية . وهذه الخطة الفذة يحسده عليها كبار القادة العظام في هذا العصر حتما لانها حققت جميع اغراضها واثبتت نبوغ نور الدين محمود وعبقريته العسكرية . وقبل ان يغادر الفرنج الاراضي المصرية الى فلسطين اتفق (شاور) مع الملك اموري على ترك حامية فرنجية في مدينة القاهرة ليعهد الى هذه الحامية حراسة ابواب القاهرة . وذلك كي لا تقع ابواب المدينة بيد قوات نور الدين اذا عادت جيوشه الى مصر من جديد ، وهذا يدل بوضوح على ان شاور لا يأمن جنوده على حراسة ابواب القاهرة خوفا من تسليمها الى الجيش السوري (١) .

الفرنج يمهدون لعقد حلف بيزنطي لحلف بغداد

الفرنج يفقدون اتزانهم ويهاجمون الاقليم المصري مرة ثالثة

بعد ان عاد (اموري) من مصر ورمم قلاعه المخربة على حدود الاقليم السوري هاله طوق الحصار الاقتصادي الذي ضربه العرب حول دولته من سلسلة جبال طوروس الى الحدود المصرية في الجنوب، خصوصا فشله في محاولة فك هذا الطوق بالهجوم على مصر مرتين متواليتين الامر الذي يعرض بقاء دولة الفرنج في فلسطين الى الزوال . وعلى هذا الاساس قرر الملك (اموري) عقد تحالف عسكري مع الدولة البيزنطية ضد الاقليم السوري وذلك لحماية ظهره من جيوش نور الدين اذا حاول الملك (اموري) مهاجمة مصر من جديد . وفي آب عام ١١٦٧ اوفد الملك (اموري) المؤرخ الكبير وليم الصوري في سفارة الى الامبراطور (مانويل) امبراطور الدولة البيزنطية لعقد قرانه على ماري ابنة اخ الامبراطور مانويل لتكون ملكة بيت المقدس المقبلة تمهيدا لهذا

---

(١) يلاحظ هنا مقدار الوعي القومي العربي الذي كان عليه جيش الاقليم المصري .

الحلف ولكن الامبراطور مانويل اشترط عليه لقاء الدخول في هذا الحلف ان يشركه في مهاجمة مصر (١) . وذكر وليم الصوري ان الوفد الذي ارسله مانويل جوابا على طلب الملك (اموري) الدخول في الحلف قال : (... ان الامبراطور رأى ان المملكة المصرية التي كانت زمنا طويلا قوية وغنية قد آلت امورها الى يد حكومة يسوسها رجال ضعاف لا يستطيعون حمل السلاح ولا المحافظة على البلد ... وان الامبراطور صادق الرغبة في الاتفاق مع (اموري) على احتلالها) . وقد وافق الملك (اموري) على ذلك وأخذ الطرفان يستعدان للحملة المقبلة ولكن قرر الملك (اموري) فجأة الانفراد بمهاجمة مصر لوحده (٢). ولم يذكر لنا التاريخ الاسباب الحقيقية التي جعلت (اموري) يعدل عن مشاركة حليفه الجديد في مغامرته المقبلة . فبعض المصادر تنسبها الى الحاح (جلبرت الاسيلي) مقدم الفرسان الاسبتارية وهو قائد حامية الفرنج في القاهرة الذي هون على (اموري) فتح مصر بمفرده كي لا يشاركه امبراطور بيزنطة بالغنيمة ، والبعض الآخر يذكر ان (اموري) اراد الاسراع بالحملة دون الجيش البيزنطي لان (اموري) علم ان (شاور) اخذ يتقرب من نور الدين وانه خطب اخت صلاح الدين الايوبي لتعزيز الروابط بينهما (٣) .

اموري يخدع نور الدين وشاور معا لمفاجأة الاقليم المصري

وكيفما كان الامر فقد تحرك (اموري) بجيشه الى مصر في تشرين عام ١١٦٨ محاولا فتحها للمرة الثالثة وقد اراد (اموري) ان يخدع نور الدين وشاور معا عن حركته الى القاهرة فأعلن انه يبغي مهاجمة

---

(1) Gilluaume de tyre, p. 934 — 945
(2) Gilluaume de tyre, p. 968

(٣) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٤٧

حمص . وقد جازت الخدعة على نور الدين محمود فحشد جيشه في حمص لصد هذه الحركة ، وفي هذا الوقت بالذات كانت الحملة الفرنجية في طريقها الى مصر (١) . وكما بقي خبر زحف هذه الحملة مكتوما عن نور الدين ، كذلك بقي سرا مكتوما عن (شاور) ايضا الذي لم يعلم بالحركة الا حين بلغ جيش الفرنج قلعة (الداروف) المعروفة بدير البلح. وبذلك حصل (اموري) على مفاجأة استراتيجية تامة على الاقليم المصري ونور الدين .

ولم يكن عند (شاور) ما يبرر قيام حليفه (اموري) بتلك الحملة لمهاجمة مصر بعد ان ارتضى (شاور) من تحالفه مع الفرنج مكانة التابع الذي يدفع ضريبة سنوية لهم واقامته اياهم حراسا على ابواب القاهرة حتى لا يتمكن جند الاقليم السوري من دخولها في غفلة من اتباعه .

وقد أراد (اموري) ان يخدع حليفه (شاور) عن اسباب مجيئه الى مصر كما خدع نور الدين من قبل ، فلما بادر (شاور) بارسال (شمس الخلافة) محمد بن مختار الى (اموري) قبل وصوله القاهرة مستفسرا منه عما دعاه للمجيء ، طمأن (اموري) خاطر الرسول وخدعه بما لا يجوز على احد مطلقا ، فقد زعم (اموري) انه اراد التوسط بين المصريين وبين جماعة اوربية جاءت من وراء البحار قاصدة غزو مصر كما زعم ان محبته لأهل مصر ولحليفه (شاور) تحتم عليه النهوض لدفع الخطر الاوربي عن مصر (٢) . وهكذا خدع (اموري) حليفه (شاور) ايضا . وحينئذ ايقن (شاور) بما كان قد ترامى الى سمعه من ان فئة من الامراء المصريين في بلبيس أمثال ابن الخياط وابن النحاس وابن خرجلة كاتبوا (اموري) يحببون اليه القدوم الى مصر ويهونون عليه فتحها ويعدونه بالانضمام الى جانبه اذا قدم بجيشه ورجاله (٣) .

(١) ابو شامه : الروضتين ج ١ ص ١٥٤ (يلاحظ هنا ان منطق الاستعمار لتبرير عدوانه كان ولا يزال واحدا سواء في الماضي او الحاضر)
(٢) ابو شامه ج ١ ص ١٦٩
(٣) اتابكة الموصل ص ٢٤٧

نزل (اموري) بظاهر بلبيس وطلب من حاكمها طي بن شاور ان يأذن له بدخولها ليعسكر فيها بجيشه ، ولكن الشعب المصري الكريم هب في وجه الفرنج وناضلهم نضالا أثار حفيظة اموري عليهم وانضم الى هذا النضال علي بن شاور نفسه . وقد دام حصار بلبيس ثلاثة ايام بلياليها ثم دخلها الفرنج وذبحوا سكانها . وقد وصف (بيزانت وبالمير) في كتابهما (القدس) دخول الفرنج مدينة بلبيس بما يلي : (سار فتيان القدس وما حولها من المدن واستولوا على بلبيس بعد مسيرة عشرة ايام في الصحراء ، ولم يقاوم اهل بلبيس الا مقاومة طفيفة استمرت ثلاثة ايام استولى الفرنج بعدها عليها وذبحوا كل طفل وامرأة ورجل وقع في قبضتهم وسووا بيوتها بالارض .. الخ) ، ثم تحرك الفرنج الى القاهرة فوصلوها يوم ١٣ تشرين الثاني عام ١١٦٨ وقد أبى اهل القاهرة ان يلاقوا مصير اهل بلبيس واعتزموا ان لا يسلموا العاصمة الا وأهلها جثث هامدة ، فأخلوا الفسطاط بكاملها بعد ان حملوا معهم كل ما استطاعوا حمله من متاع وطعام ثم اضرموا فيها النيران التي بقيت متأججة اربعة وخمسين يوما . ولا تزال آثار هذا الحريق بادية في بعض خرائب الفسطاط الى يومنا الحاضر .

العاضد يستنجد نور الدين محمود بشعور نسائه

نظر المصريون بعين الأسى الى تلك المدينة الزاهية والنار تلتهمها وهم راضون بذلك ، فالنار تأكل متاعهم أهون على نفوسهم من ان تقع بلادهم في يد دخيل اجنبي . ويذكر ابو شامة ان اهالي القاهرة باتوا على الطرقات ما يقرب من شهرين لا يلوون على شيء سوى متابعة القتال . وقد استنجد الخليفة العاضد بنور الدين وبعث اليه بشعور

نسائه وهو أقوى مظهر من مظاهر التوسل (١) . وتذهب بعض المصادر ان الخليفة العاضد حمل هذه الشعور بنفسه الى نور الدين محمود في حلب . وفي الروضتين ص ١٣٩ ان الخليفة حين دخل على نور الدين قال : (هذه شعور نسائي يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج) . وما كاد نور الدين يرى ويسمع ذلك حتى ثارت فيه النخوة والأنفة والكبرياء وقرر ان ينقذ مصر التي هي جزء من جسم الامة العربية الاصيلة فورا . وقد ازمع نور الدين في هذه المرة ان لا ينقذ مصر من الاستعمار قبل ان ينقذها من (شاور) حليف الاستعمار وسنده اولا فاذا تحقق الاخير تحقق الاول حتما كما سيتضح .

بعث نور الدين الى قائده اسد الـدين في حمص يأمره بالتجهز للحملة الى مصر للمرة الثالثة . وقد خصص لكل فارس رافق اسد الدين (عشرين دينارا) (٢) عدا الراتب كما وضع تحت تصرف القائد العام جميع امكانيات الدولة لتحقيق هذه الغاية . وفي ١٧ كانون الاول عام ١١٦٨ تحرك جيش الاقليم السوري الى مصر ، وكان تعداده في هذه المرة الفي خيال مع اربعمائة جندي فقط وقد رافق الحملة صلاح الدين الايوبي . وبلغ الجيش مصر ودخل القاهرة في ٨ كانون الثاني عام ١١٦٩ ، وقد استقبله القاهريون استقبالا حماسيا رائعا منقطع النظير . اذ رأوا في جيش الاقليم السوري خلاصا لهم من الاستعمار الفرنجي . وقد تبـارى الشعراء في القصائد يمدحون بهـا الجيش السوري وقادته (٣) . أما (شاور) حليف الفرنج فقد انقلب عليه الشعب المصري ونبذه حتى ولداه علي والكامل (٤) . واما الفرنج فقد اسرعوا بالرحيل عن مصر فورا لا يلوون على شيء ، فقد هالهم اتحاد العرب وتوحيد

---

(١) الروضتين ص ١٣٩
(٢) كان هذا المبلغ يعد ثروة كبيرة في ذلك الوقت
(٣) ابو شمه : الروضتين ج ١ ص ١٥٨ ابن الاثير ج ١١ ص ١٣٥
(٤) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ١٣٧

كلمتهم في مصر وسورية وايقنوا ان لا سبيل لهم بالبقاء لا في مصر فقط بل في فلسطين والشرق بأسره ايضا كما سيتضح • وفي صباح يوم ١٨ كانون الثاني عام ١١٦٩ استفاق القاهريون واذا بهم لا يرون للفرنج اثرا ، فقد غادروا القاهرة وانسحبوا عن الاقليم المصري للمرة الثالثة مخذولين (١) • هذه هي المنزلة التي وصلت اليها مصر وشعبها من جراء دعاة الاستعمار أمثال ضرغام وشاور في ذلك الوقت • كان هم ضرغام وشاور الحصول على الجاه والمال والسلطان فقط واستعانا بالفرنج المستعمرين لتحقيق ذلك ، فداسا حقوق الشعب وحريته المقدسة حتى ارديناه في مهاوي العبودية والذل والفاقة • ولم ينقذه من ذلك الا الخلاص من عملاء الاستعمار اولا فلما زال عملاء الاستعمار زال الاستعمار نفسه • اما الوحدة بين الاقليمين فكانت نتيجة طبيعية لزوال الاستعمار ودعاته كما حدث في حلب والشام والموصل سابقا بعد زوال النفوذ السلجوقي عن تلك البلاد •

اذا زال دعاة الاستعمار زال الاستعمار نفسه

وحين استقرت جيوش نور الدين في مصر بعد طرد الفرنج عنها ، لم يشذ نور الدين وصحبه في مصر عن القاعدة التي استطاع بها العرب الخلاص من الاستعمار السلجوقي في الدولة العباسية • فقد ذكرنا ان العرب في الدولة العباسية بدأوا بمكافحة اعوان السلاجقة قبل ان يكافحوا السلاجقة المستعمرين انفسهم • فقد بينا ان الخليفة العباسي المستظهر بالله كان سند الاستعمار وركيزته في العراق وان السلطان محمود السلجوقي حاكم العراق المطلق في ذلك الوقت كان

(1) Stevenson, p. 194

يستخدم هذا الخليفة الخانع أداة للسيطرة على العراق واخضاعه لنفوذ السلاجقة المستعمرين • وذكرنا ايضا كيف ثار الشعب العراقي عام ١١١٠ على المستظهر بالله في جامع بغداد الكبير ، فأنزله عن المنبر وارغمه على اعلان الجهاد • ومع ذلك فقد تخلف العراق عن الركب العربي بسبب هؤلاء الاذناب ، حتى ان جيش العراق لم يشترك بمعركة حطين بسبب عملاء الاستعمار ودعاته في العراق واستمرار خضوعهم للمستعمرين السلاجقة كما سيتضح (١) •

لقد ادرك نور الدين وصحبه في مصر هذه الحقيقة وحفظوها تماما لذلك قرروا مناهضة هؤلاء الاذناب والاجهاز عليهم في مصر فورا ، فاذا تحقق لهم ذلك تحقق القضاء على اطماع الفرنج باستعمار الاقليم المصري كما سيتضح •

مؤامرة للقضاء على وحدة مصر وسورية

القضاء على اعوان الاستعمار في الاقليم المصري

بدأ اسد الدين بمراقبة هؤلاء الاعوان مراقبة دقيقة تامة في مصر وعلى رأسهم (شاور) الذي حالف الفرنج ودعاهم لاحتلال الاقليم المصري مرتين ، فنصب له الارصاد وبث العيون حوله ، وراقب حركاته في الداخل والخارج • وفجأة واذا بأسد الدين يكتشف مؤامرة يدبرها (شاور) لقتله • وخلاصة ذلك ان (شاور) قرر دعوة اسد الدين وضباطه الى مأدبة يقيمها من أجلهم ثم يلقي القبض عليهم ويقتلهم

(١) سوف نأتي الى تفصيل ذلك عند شرح معركة حطين

جميعا (١) • وفي كتاب الروضتين انه قرر ان يدس لهم السم في الطعام في تلك المأدبة ، ولكن ابن شاور (الكامل) فضح المؤامرة وأبلغها الى اسد الدين • ويذكر ان (الكامل) قال لابيه (شاور) بصدد هـذه المؤامرة : (لئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من ان نقتل وقد ملكها الفرنج) (٢) •

وفي اليوم التالي لاكتشاف المؤامرة ذهب شاور لزيارة أسد الدين في خيمته كعادته في كل يوم ظنا منه ان اسد الدين يجهل تآمره عليه ، فقيل له ان اسد الدين ذهب لزيارة الامام الشافعي ، فذهب خلفه ، وعلى الطريق تصدى له صلاح الدين الايوبي وعز الدين فقتلاه (٣) •

وهكذا انتهت حياة هذا الوزير الذي حارب بلاده واستعان على بني قومه بأعدائهم مرات عديدة ، فتخلصت أرض الاقليم المصري من احد أذناب المستعمرين كما تخلصت من ضرغام من قبل •

وبعد مقتل (شاور) استدعى العاضد اسد الدين وقلده وزارة مصر •

---

(1) Stevenson, p. 194

(٢) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ١٢٨

(٣) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٥٢

الفصل السادس

صلاح الدين الايوبي يتولى زمام الاقليم المصري

عاجلت المنية اسد الدين فمات في آذار عام ١١٦٩ بعد اسابيع قليلة من توليه الحكم ، وخلفه صلاح الدين الايوبي الذي واصل أداء الرسالة في تحرير الامة العربية من الاستعمار واعوانه لتوحيدها ولم شعثها وتأليبها لطرد الفرنج عن فلسطين .

شخصية صلاح الدين

وصف الجنرال (فوللر J. F. C. Fuller) صلاح الدين الايوبي في كتابه الاخير المعارك الفاصلة في العالم الغربي ج ١ ص ٤١٢ (Thedecisive Battles of the western world) كما يلي :

(كان صلاح الدين ذا مزايا عالية حقيقية في تاريخ القرون الوسطى فهو بطبيعته يميل الى طلب العلم .

كان قائدا حذرا مدركا للامور الاستراتيجية اكثر من الامور النعبوية ، وكان شديد العناية بجنوده ، كريما نحوهم لطيفا بهم . وكان اداريا سابقا لعصره . وخلاصة القول فانه يقف متساميا بين الرجال ، وقد احيطت فروسيته نحو خصومه بهالة من المجد ، خلقت ادبا رومانتيكيا مازال متداولا في الشرق ... الخ ..) .

ذكرنا ان الفرنج حاولوا فك طوق الحصار الاقتصادي المضروب حولهم باكتساح الاقليم المصري ثلاث مرات متوالية .

وذكرنا ان المحاولة الاولى لاكتساح مصر انتهت بانضمام الجيش المصري الى الجيش السوري في معركة تل بسطة ونشوب ثورة القاهرة وقتل ضرغام حليف الفرنج . وانتهت الحملة الثانية بانضمام اهالي الصعيد الى اخوانهم في الجيش السوري وهزيمة الفرنج في معركة البابين ، وتسليم (شاور) حراسة ابواب القاهرة الى حامية فرنجية خوفا من ان يعمد الجيش المصري الى تسليم المدينة للجيش السوري . وانتهت الحملة الثالثة باحراق المصريين للفسطاط كي لا تقع بيد الفرنج ، واستقبال الشعب العربي المصري للجيش السوري القادم لفك الحصار عن مدينة القاهرة ، وقتل (شاور) حليف الفرنج وعميلهم .

لقد أدرك الفرنج بعد هذه الحملات الثلاث الفاشلة على الاقليم المصري انهم اصطدموا بالحقيقة المرة الواقعة وهي ان قضية اكتساح هذا الاقليم وفك طوق الحصار الاقتصادي عن دولة الفرنج ليست قضية استمالة بعض الخونة من الوزراء كضرغام وشاور انما هي قضية كفاح الشعب العربي بأسره ضدهم لذلك عمد الفرنج في هذه المرة الى سياسة الاحلاف لمحاولة اخضاع مصر وارغامها على فك طوق الحصار الاقتصادي الذي اخذت حلقاته المستحكمة تلقي الفزع في قلوب الفرنج وتهدد كيانهم كمستقرين في بلاد الشرق . وعلى هذا الاساس استقر الرأي على وجوب اثارة حرب فرنجية جديدة ذلك ان احتمال اتحاد سورية ومصر جدير بان يجعل ممالك اوربا تهب جميعها لعرقلته لذلك رأى (اموري) ورجاله ان يبعثوا الى ملوك اوربا سفارة تستنجدهم لدفع الخطر ، واستقر الرأي على تأليف هذه السفارة من

بطريك القدس ومطران قيصرية ومطران عكا على ان تقصد هـذه السفارة لويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك انجلترا وفريدريك امبراطور المانيا ووليم ملك صقلية وفيليب كونت فلندر وهنري كونت شمبانيا وغيرهم (١) ٠

ولما استعرض اعضاء هذه السفارة حالتهم امام لويس السابع ملك فرنسا والاخطار التي تهدد بيت المقدس تذكر لويس السابع فشله في الحملة الثانية حول اسوار دمشق عام ١١٤٨ فتعلل بانشغاله بمحاربة الانجليز الذين ينازعونه العرش ٠ وهكذا رفض الاشتراك بالحملة ٠ وكذلك أثارت هذه الذكريات جماعات الفرسان في مختلف الممالك الاوربية فأحجموا جميعا عن الاقدام على خوض غمار الحرب في بلاد الشرق ٠ ولما قابل الوفد هنري ملك الانجليز أخذ يماطله (حتى مات احد رجال الوفد في انجلترا) (٢) فعاد من بقي حيا من اوربا دون تحقيق الهدف الذي سعى اليه (اموري) ملك القدس ، وهكذا فشلت سفارته في اوربا ٠ حينئذ تلفت (اموري) حوله ينشد حليفا جديدا لمعاونته في اخضاع مصر فلم يجد بـدا الا بالاستغاثة بالامبراطور (مانويـل) امبراطور الدولة البيزنطية الذي كان ينظر هو الآخر بعين الخوف الى احتمال اتحاد العرب في سوريا ومصر في دولة عربية واحدة على يد نور الدين محمود ، الامر الذي دعا (اموري) وأرغمه على معاودة الاتصال بامبراطور الدولة البيزنطية (مانويل) لعقد تحالف عسكري لمهاجمة مصر واخضاعها ٠

كان (مانويل) امبراطور الدولة البيزنطية يطمع من وراء هـذا الحلف للسيطرة على مصر وضمها الى دائرة نفوذه للانتفاع بخيراتها

---

(١) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ١٣٤
(٢) يلاحظ ان الانجليز عريقون في برودة الدم ٠

اما الملك (اموري) ملك الفرنج في القدس فقد هدف من تحالفه مع الدولة البيزنطية معاونته في فك طوق الحصار الاقتصادي الذي فرضه العرب حول دولته • وعلى اساس هذه المنافع المشتركة ابرم الحلف بين الطرفين في ذلك العصر (١) •

واذا دققنا اغراض الحلف واهدافه نجدها ترمي الى نفس الاغراض والاهداف التي يرمي اليها الحلف العراقي التركي في هذه الآونة • فكما ان الدولة البيزنطية استهدفت في ذلك الوقت ضم مصر الى دائرة نفوذها للانتفاع بخيراتها ، وان دولة الفرنج استهدفت من ورائه فك طوق الحصار الاقتصادي عنها ، كذلك استهدف الاتراك من الحلف العراقي التركي الى مد نفوذ تركيا في الدول العربية والانتفاع بخيراتها، كما استهدفت الصهيونية العالمية من حلف بغداد فك طوق الحصار الاقتصادي الذي يفرضه العرب على اسرائيل في هذا العصر تماما •

معركة دمياط

وفي تموز عام ١١٦٩ م تحرك الاسطول البيزنطي الى قبرص بطريقه الى مصر ، وكانت الحملة في هذه المرة بحرية ، وذلك لعدم امكان الاستفادة من الطريق البري بعد ان سده نور الدين محمود بوجه اوربا كما تقدم • وفي قبرص تزود الاسطول البيزنطي بمؤن تكفيه ثلاثة اشهر • وكان هذا الاسطول يتألف من ستين سفينة حربية كبيرة بقيادة (كونستفانوس Constiphanos) قائد الاسطول البيزنطي (٢) •

ثم عرج هذا الاسطول الى مدينة صور حيث التقى بجيش الملك (اموري) البري ، كما انضمت اليه سفن اخرى ، وبذلك اصبح هذا

---

(١) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ١٣٥
(1) Gilluaume de Tyre, p. 961
(2) Gilluaume de Tyre, p. 961

الاسطول اكبر اسطول حربي عرفه الفرنج الى ذلك التاريخ (١) • ومن مدينة صور ركب الجيشان البحر الى مصر ، ومر هذا الاسطول بعسقلان (والفورما) حيث القى مراسيه في مكان لا يتوقعه صلاح الدين الايوبي مطلقا وهو مدينة دمياط الواقعة على مصب النيل في البحر المتوسط ، وبذلك حصل الفرنج على المفاجأة الاستراتيجية على صلاح الدين كما حصلوا عليها في عهد اسد الدين قبلا •

وكانت دمياط غير محصنة ومع ذلك فقد امضى الفرنج ثلاثة ايام في بناء المعسكرات دون ان يحاولوا الاستيلاء على المدينة ، وبذلك اضاعوا الفرصة المناسبة للاستيلاء عليها الى الابد ، فقد تحصنت المدينة خلال هذه المدة واستعدت للدفاع ، وبذلك فقد الفرنج قيمة المفاجأة الاستراتيجية التي حققوها على صلاح الدين في هذه المرة ، وكان ذلك من اقوى اسباب فشلهم كما سيتضح •

الجيش السوري يشترك في معركة دمياط

مؤتمن الخلافة الفاطمية يكاتب الفرنج في حذاء •

لم يستطع صلاح الدين الحركة بجيشه من القاهرة لصد الفرنج عن دمياط فقد خشي من مؤامرات القصر الفاطمي وجند السودان المحيطين بالخليفة العاضد • وقد رسم صلاح الدين حولهم شبكة دقيقة من العيون والارصاد وراقب جميع الطرق بين القاهرة ودمياط مراقبة شديدة •

وكتب الى نور الدين يصرح له بمخاوفه من مؤامرات السودانيين ، فبعث اليه نور لدين بحملة قوية من الجيش السوري للاشتراك مع الجيش المصري لصد الفرنج عن دمياط فورا (٢) •

---

(١) حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ١٢٥
(٢) الاتابكة ص ٢٥٩

وبينما كان جند صلاح الدين يراقبون الطرق بين القاهرة ودمياط اذا بهم يلقون القبض على رجل يحمل رسالة مخفية في حذاء جديد ، وكانت الرسالة مرسلة من (جوهر) مؤتمن الخلافة الفاطمية في قصر الخلافة بمصر الى (اموري) ملك الفرنج ، فسلمت الرسالة الى صلاح الدين الايوبي ، واذا بها تكشف عن مؤامرة خطيرة يدبرها مؤتمن الخلافة الفاطمية ضد مصر مع الفرنج لتسليم الاقليم المصري (٣) .

وخلاصة هذه المؤامرة ان مؤتمن الخلافة الفاطمية وهو خصي أسود طلب من الفرنج في هذه الرسالة ان يبحروا الى دمياط باسطولهم ، فاذا وصلوا وخرج صلاح الدين بجيشه لقتالهم قام اعوان مؤتمن الخلافة وهاجموه من خلف بينما تناجزه جيوش الفرنج وجها لوجه (٤) . وبذلك يقضى على صلاح الدين ويحتل الفرنج الاراضي المصرية .

تجاهل صلاح الدين امر هذه الرسالة ولبث يتحين الفرص للايقاع بمؤتمن الخلافة حتى خرج ذات يوم الى قصر له خارج القاهرة فأرسل اليه صلاح الدين من قتله .

ويذكر عماد الدين الكاتب ان اتباع مؤتمن الخلافة وكانوا من السودانيين ثاروا بعد قتل جوهر وكانوا اكثر من خمسين الفا (وكانوا اذا قاموا على وزير قتلوه وأزالوه واستباحوه) (٥) وهب صلاح الدين يردهم بجيشه فعمد الى محلتهم في المنصورة فأحرقها . فلما بلغهم النبأ تفرق شملهم وهرعوا الى تلك المحلة يتفقدون نساءهم وأطفالهم ، فداهمهم صلاح الدين وأخذ عددا منهم وقتلهم وطارد فلولهم .

---

(٣) الذهبي ص ١٤١ ، حسن حبشي نور الدين والصليبيون ص ١٣٣
(٤) رفيق التميمي الحروب الصليبية ص ١٢٥
(٥) الذهبي ص ١٤١ ــ ١٤٣

وبذلك تخلص العرب في مصر من اذناب الفرنج المقيمين بين ظهرانيهم ونجت مصر من كارثة محققة دبرها الخونة بالخفاء لطعن الوحدة من الخلف .

الاقباط والمسلمون يدا واحدة في معركة دمياط

بعد ان تواردت النجدات على دمياط من سوريا ومصر اصبح بامكان المدينة الوقوف في وجه الفرنج . ويقول وليم الصوري مؤرخ الحروب الصليبية ان اهل دمياط بنوا برجا للدفاع عن المدينة اعلى من البرج الذي بناه الفرنج لمهاجمتهم .

ويقول وليم الصوري ايضا ان المسلمين والاقباط كانوا يدا واحدة في محاربة الفرنج . ومما زاد في حراجة موقف الفرنج شدة هطول الامطار بغزارة حتى تحولت خيام الفرنج ومعسكراتهم الى اطيان واوحال اضطرتهم الى حفر الخنادق حولها . وقد طال حصار مدينة دمياط اكثر من ثلاثة اشهر استنفذ الفرنج خلالها معظم اقواتهم فضلا عن استحالة الحصول على شيء من الطعام من دمياط وما جاورها .

المقاومة الشعبية في مدينة دمياط

وقد اعلن العرب على الفرنج المحاصرين لدمياط حرب عصابات طاحنة فأخذوا يغيرون في الليل على خيام الفرنج ويتلفوا ما تبقى لهم من غذاء وحاجات . كما أخذت المراكب المصرية الصغيرة تغير بصورة مفاجئة على سفن الفرنج الراسية في الميناء وتحرقها مما زاد في حراجة موقف الفرنج (١) .

---

(١) المقريزي الخطط ج ص ٣٤٦

(2) Gilluaume de Tyre, p. 967

ـ البيزنطيون والصليبيون يتسابقون للصلح مع صلاح الدين

اقترح قائد الاسطول البيزنطي (كنستفانوس Constiphanos) على اموري القيام بهجوم عام على المدينة لاحتلالها والتقدم الى داخل البلاد. ولكن اموري رفض الخطة متعللا انها تؤدي الى هزيمة الجيش ، فأنكر عنيه ذلك كنستفانوس وعقد بعد منتصف احدى الليالي مجلسا حربيا مع ضباطه وأمرهم بالهجوم على المدينة دون اشراك قوات الملك اموري.

وقد علل اموري قرار البيزنطيين بالانفراد بالهجوم على دمياط انهم يرمون من وراء ذلك الانفراد بحكم مصر لوحدهم وكان من رأي اموري اطالة الحصار لعله يرهق صلاح الدين فيعود الى ما كان متفقا عليه من دفع الجزية السنوية التي كان الخلفاء الفاطميون يدفعونها للفرنج. لذلك دبر أموري وسيلة للاتصال بصلاح الدين الايوبي ليفسد على البيزنطيين خطتهم . وكان هذا القرار اول تصدع في الحلف الفرنجي البيزنطي . ولما علم البيزنطيون بخبر هذا الاتصال سارعوا هم ايضا بالاتصال مع صلاح الدين لمفاوضته ايضا . ثم اخذ كل من الفرنج والبيزنطيين يتهم الآخر انه هو الذي بدأ بمفاوضة صلاح الدين اولا . وبذلك وجد كل من الطرفين لنفسه مبررا للاسراع بمفاوضة صلاح الدين وقبول شروط أسهل من شروط زميله وذلك كي يفوز بالاتفاق قبله ، ثم ساءت العلاقات بين الملك اموري وحليفه البيزنطي فأخذ كل منهما يتهم الآخر بأنه يتآمر مع العرب ضده (1) وانه يدبر الخطط للايقاع به.

وقد استغل المصريون الفرقة والجفاء بين الطرفين فأخذوا طورا يدعون ضباط البيزنطيين وجنودهم الى معسكراتهم على مرأى من جنود اموري ، وطورا يدعون ضباط وجنود اموري الى معسكراتهم

---

(1) Gilluaume de Tyre, p. 968

على مرآى من البيزنطيين ، مما زاد في شك وريبة كل منهما بالآخر[1] .

وفي هذه اللحظة الحاسمة قام نور الدين من دمشق وهاجم حصن الكرك الذي يفصل بين سوريا ومصر والحجاز ، الامر الذي جعل اموري يسرع بطلب العودة الى فلسطين (٢) .

واخيرا استطاع قائد الاسطول البيزنطي ان يسبق اموري ويعقد هدنة منفردة مع صلاح الدين ويعود الى بلاده ، مما ارغم اموري ان يقبل شروط الصلح التي وضعها صلاح الدين ويعود هو الآخر الى بلاده ايضا ، وبذلك فشلت الحملة الفرنجية الثالثة على مصر .

معركة دمياط تمهد الطريق لوحدة سورية مع مصر

وهكذا فشلت هذه الحملة التي كانت نكبة البيزنطيين فيها اشد من نكبة الملك اموري . ويتهكم ابن الاثير على الفرنج في هذه الحملة ويشبههم بالنعامة التي خرجت تطلب قرنين فعادت بلا اذنين (٣) .

وكان من نتيجة هذه الحملة ان تمكنت الوحدة العربية بين سوريا ومصر . ومن جهة اخرى فقد تداعى مركز الخلافة الفاطمية الى الانهيار بعد ثبوت تآمر مؤتمن الخلافة الفاطمية وكاتم اسرارها مع الفرنج ودعوتهم لاحتلال مصر كما تقدم . وهكذا اصبح الملك اموري لوحده بعد ان فقد حلفه مع الدولة البيزنطية كما فقد معاضدة اوربا له من قبل كما تقدم ، الامر الذي جعل المبادهة الحربية ان تنتقل من يد الفرنج الى يد العرب الى سقوط القدس بعد معركة حطين عام ١١٨٧ . ففي كانون الاول عام ١١٧٠ قام صلاح الدين الايوبي بأول هجوم

(1) Shlumberger, p. 284

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٥٨ ، الذهبي ص ٢٤٣

(٣) ابن الاثير ج ١١ ص ١٥٨

معاكس على دولة الفرنج وزحف الى دير البلح ومنها هاجم قلعة غزة التي كانت من اقوى معاقل الفرنج قرب الحدود المصرية . وقد لبى الفرنج دعوة الملك اموري للاسراع برد قوات صلاح الدين عن غزة خصوصا وان الفرنج في فلسطين اصبحوا في الميدان لوحدهم بعد ان تخلت عنهم الدولة البيزنطية والدول الاوربية بأسرها .

وبذلك تمكن نور الدين محمود ان يجعل دولة الفرنج بين شقي الرحى سوريا من الشمال ومصر من الجنوب . كماأصبح بامكانه مقابلتهم باسلوب المناورة المعروف (القتال على الخطوط الخارجة) .

الغاء الخلافة الفاطمية

تآمر مؤتمن الخلافة الفاطمية مع الفرنج يؤدي الى انقراض الدولة الفاطمية

بعد رجوع صلاح الدين من دمياط ونجاحه في دحر الفرنج عنها تفرغ للاجهاز على حلفاء الفرنج المستعمرين وأذنابهم . ولما كانت مؤامرة مؤتمن الخلافة جوهر قد دبرت تحت سمع وبصر الخليفة العاضد ، وثبت ان هذا الخليفة كان يتآمر مع الفرنج ضد سلامة وطنه كما تقدم ، قرر صلاح الدين الايوبي الغاء الخلافة الفاطمية من مصر ، خصوصا ان نور الدين محمود كان يحضه على ذلك بصورة مستمرة[1] .

هذا من جهة ومن جهة اخرى ان هذه المؤامرة التي انتهت بثورة المنصورة كما تقدم جعلت سمعة الخلافة الفاطمية في مصر ان تتردى الى الحضيض ، فتخلى عنها اتباعها وانصارها وفقدت سمعتها وكرامتها وحل الازدراء والكراهية بدل الاجلال والاحترام بين كافة طبقات الشعب المصري والعرب أجمعين .

---

(١) الروضتين ص ٦٠

وفي يوم الجمعة ١٠ ايلول عام ١١٧١م كلف صلاح الدين احد العلماء المعروفين (الخوبشاني) ان يقطع خطبة الجمعة عن العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين ويجعلها باسم العباسيين (١) .

سار هذا العالم وصعد المنبر وخطب في الناس باسم المستضيء بالله ولم يختلف عليه اثنان . ويقول ابن الاثير في هذا : (قابل الناس هذا الحادث الخطير بهدوء عجيب ولم ينتطح فيه عنزان (٢) .

ولما علم صلاح الدين بذلك امر ان تعاد الخطبة باسم المستضيء بالله في الجمعة المقبلة في كافة مساجد القاهرة فتم ذلك دون اي معارضة ايضا . وقد عمد صلاح الدين الايوبي بعد وفاة العاضد بالله آخر خلفاء الدولة الفاطمية فجمع اولاده واقاربه وكان عددهم (١٥٢) شخصا وفرق بين النساء والرجال منهم كي لا يتناسلوا انتقاما لخياتنهم الفادحة السابقة التي تعد اكبر وصمة في تاريخ الفاطميين .

وهكذا فقد ادى تعاون الفاطميين مع الفرنج المستعمرين الى انقراض دولتهم وانقراض ذريتهم الى الابد . كما سارت الوحدة بين سورية ومصر خطوات جديدة .

---

(١) الروضتين ص ٦٠ ، رفيق التميمي الحروب الصليبية ص ١٢٦

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ١٢٧

بعد ان استتبت الامور لصلاح الدين بعد طرد الفرنج عن دمياط واسقاط الخلافة الفاطمية ارسل صلاح الدين اخاه طوران شاه الى الشواطىء الافريقية ، فاستولى على طرابلس وتونس حتى مدينة قابس. ثم ارسله الى السودان وبلاد النوبة فاستولى عليها .

وفي ١٥ مايس عام ١١٧٤ توفي نور الدين محمود في حلب وخلفه في الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل وهو طفل صغير ، الامر الذي دعا صلاح الدين ان يخف للسفر الى سورية خوفا من طمع الفرنج بمهاجمة الاقليم السوري وطمع الامراء بالاستقلال في ولاياتهم .

وفي تشرين الاول عام ١١٧٤ وصل صلاح الدين الى دمشق فاستقبله السكان استقبالا حافلا ومدحه الشعراء بقصائد خالدة .

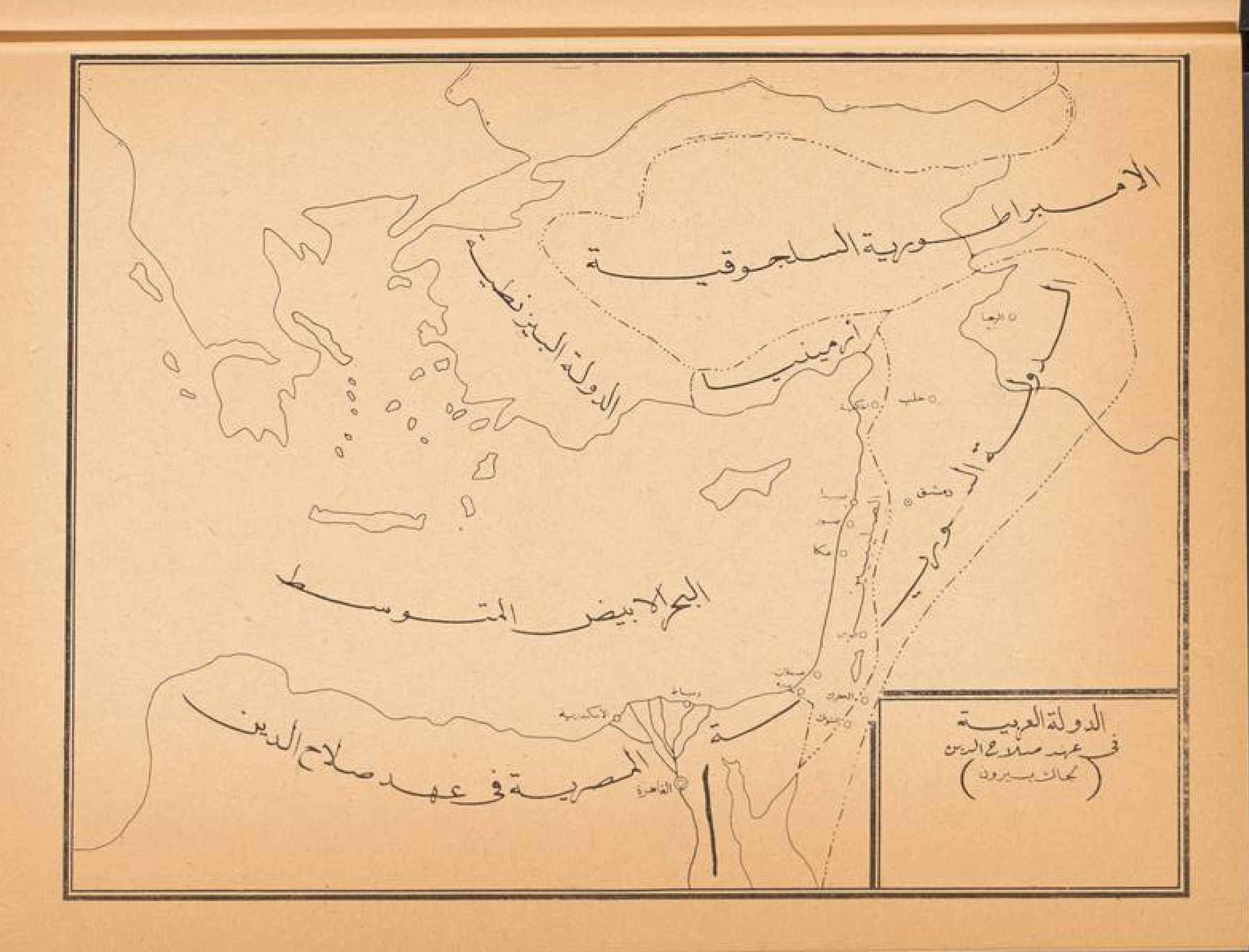
ثم توجه الى حمص وحماه وحلب حيث الملك الصالح ووزيره (كمشتكين) الذي قرر اغلاق المدينة والمحاصرة ، فأعلن صلاح الدين انه لم يأت معاديا وانما اتى لانقاذ الملك الصالح من الامراء المستبدين وعلى رأسهم (كمشتكين) الذي حرض الملك الصالح ضده (١) .

---

(١) حاول (الحشاشون) اغتيال صلاح الدين مرتين اثناء حصاره لمدينة حلب لذلك سار صلاح الدين بجيشه وحاصر قلعة (مصياف) التي بها راشد الدين سنان زعيم الحشاشين فخرب قراهم وارغمه على طلب الصلح معه .

ولما رأى (كمشتكين) في حلب ما صار اليه صلاح الدين من نفوذ وقوة في مصر وبلاد الشام اتفق مع سيف الدين غازي صاحب الموصل على مهاجمة دمشق ، الامر الذي دعا صلاح الدين ان يقطع الحصار عن حلب ويتوجه لملاقاة امير الموصل .

وفي ١٣ نيسان ١١٧٥ حقق صلاح الدين نصرا حاسما على جيش الموصل قرب مدينة حماه ثم عاد الى حلب وحاصرها . ولما خشي الملك الصالح ان يفقد هذا الملجأ الاخير عقد صلحا مع صلاح الدين اقر فيه لصلاح الدين ما بيده من المدن السورية وهي الشام وحمص وحماه وبعلبك ثم عاد صلاح الدين الى دمشق ومنها الى القاهرة .



الدولة العربية
في عهد صلاح الدين
الامبراطورية السلجوقية
الدولة البيزنطية
ارمينيا
البحر الابيض المتوسط
المصرية في عهد صلاح الدين
الرها
حلب
دمشق
دمياط
الاسكندرية
القاهرة

في ٤ كانون الاول ١١٨١ توفي الملك الصالح صاحب حلب موصيا بملكه الى عز الدين ارسلان بن مسعود كما توفي سيف الدين غازي صاحب الموصل موصيا بملكه الى اخيه عز الدين ارسلان بن مسعود ايضا .

وكان صلاح الدين يعتبر نفسه الوارث الشرعي للملك الصالح خصوصا بعد اعتراف الخليفة العباسي بذلك . وفي مايس عام ١١٨٢ تحرك صلاح الدين من القاهرة الى دمشق ومنها الى الموصل وحاصرها شهرين ، ولما امتنعت عليه عاد الى سنجار واستولى عليها (١) .

وفي شباط عام ١١٨٥ دخل عز الدين مسعود في طاعة صلاح الدين بعد مفاوضات طويلة . ودخل صلاح الدين مدينة حلب باحتفال وابتهاج عظيمين وبذلك تحققت الوحدة الشاملة بين سورية ومصر وأخذ صلاح الدين يستعد لخوض معركة حطين .

انتهى

الجزء الاول ويليه الجزء الثاني

المقدم مفلح علي

---

(١) كانت حياة صلاح الدين بعد عودته الى سورية للمرة الثانية حياة نضال موزع بين أمراء الفرنج وعز الدين بن مسعود الذي لم يبق من الامراء منافسا له غيره ، فبينما تراه يفاجيء الفرنج في طبريا وبيسان اذا به يتحول لمحاصرة بيروت برا ومنها يتوجه فجاة فيحاصر الموصل .

الخلفاء العباسيون

في فترة الاستعمار السلجوقي على العراق

١ ـ القائم

محمد

٢ ـ المقتدي

٣ ـ المستظهر

٤ ـ المسترشد	٨ ـ المستضيء
٥ ـ الراشد	٩ ـ الناصر
٦ ـ المقتفي	١٠ ـ الظاهر
٧ ـ المستنجد	١١ ـ المستنصر
	١٢ ـ المستعصم

١ ــ القائم بامر الله ابو جعفر عبد الله بن القادر	٤٢٢ ــ ٤٦٧ هـ = ١٠٣١ ــ ١٠٧٥ م ٤٥٠ ــ ٤٥١ هـ = ١٠٥٨ ــ ١٠٥٩ م وثورة البساسيري
٢ ــ المقتدى بامر الله ابوالقاسم عبد الله بن محمد بن القائم	٤٦٧ ــ ٤٨٧ هـ = ١٠٧٥ ــ ١٠٩٤ م
٣ ــ المستظهر بالله ابو العباس احمد بن المقتدى	٤٨٧ ــ ٥١٢ هـ = ١٠٩٤ ــ ١١١٨ م
٤ ــ المسترشد بالله ابو منصور الفضل بن المستظهر	٥١٢ ــ ٥٢٩ هـ = ١١١٨ ــ ١١٣٥ م
٥ ــ الراشد ابو جعفر المنصور بن المسترشد	٥٢٩ ــ ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ ــ ١١٣٦ م
٦ ــ المقتفي لامر الله ابو عبد الله محمد بن المستظهر	٥٣٠ ــ ٥٥٥ هـ = ١١٣٦ ــ ١١٦٠ م
٧ ــ المستنجد بالله ابو المظفر يوسف بن المقتفي	٥٥٥ ــ ٥٦٦ هـ = ١١٦٠ ــ ١١٧٠ م
٨ ــ المستضيء بامر الله ابو محمد الحسين بن المستنجد	٥٦٦ ــ ٥٧٥ هـ = ١١٦٠ ــ ١١٧٠ م
٩ ــ الناصر لدين الله ابو العباس احمد بن المستضيء	٥٧٥ ــ ٦٢٢ هـ = ١١٨٠ ــ ١٢٢٥ م
١٠ ــ الظاهر بامر الله ابو نصر محمد بن الناصر	٦٢٢ ــ ٦٢٣ هـ = ١٢٢٥ ــ ١٢٢٦ م
١١ ــ المستنصر بالله ابو جعفر المنصور ابن الظاهر	٦٢٣ ــ ٦٤٠ هـ = ١٢٢٦ ــ ١٢٤٢ م
١٢ ــ المستعصم بالله ابو احمد عبد الله بن المستنصر	٦٤٠ ــ ٦٥٦ هـ = ١٢٤٢ ــ ١٢٥٨ م

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥	١٩	فقد عصف المعسكر	فقد عصف بهذا المعسكر
٢٩	١٥	كافية لتلاقي	كافية لتلافي
٤٩	١٠	يعد حادث بغداد	بعد حادث بغداد (١)
٤٩	١١	اسماعيل (١) والي الموصل	اسماعيل والي الموصل
٥٠	٩	مع مردود على	مع مودود على
٥٩	٢١	تمتاز على الحملة الاولى	تمتاز عن الحملة الاولى
٦٠	٤	بعين الاعتبار	بعين الاعتبار وهي مهاجمة الرها اولا
٦٢	٤	مدينة انطاكية	مدينة بعلبك
٦٢	٧	بمدينة انطاكية	بمدينة بعلبك
٦٤	١٥	اقتصادية من حلب ودمشق	اقتصادية بين حلب ودمشق
٦٧	٧	هذا الطريق في سسله	هذا الطريق بعد سلسلة
٧١	٣	ـــــ	شطب السطر بكامله
٧١	٤	كانوا يسدون افواه	كانوا يسدون افواه الفرنج بالذهب وزاد من سوء
٧٢	١٩	لخدمة اغراض	لخدمة الاغراض
٧٣	١	الصليبية بعد تهديدها	الصليبية بعد تهديد
٧٣	٣	طريق جديد يمر من صقلية	طريق جديد يمر من ايطاليا وصقلية
٧٥	٢١	الفريقان متة لا بين	الفريقان متقابلان
٧٨	١١	ان يستولي	ان يطمئن
١٠٨	٢	في فترة الاستعمار السلجوقي على العراق	في فترة الاستعمار السلجوقي في العراق

ملاحظة : يرجى تصحيح الاخطاء قبل القراءة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مخالفة مبدأ الحشد	٣٨
عدم وجود خطة عامة للحرب	٤٠
عدم التعاون مع سكان انطاكية وفلسطين	٤١
مخالفة مبدأ الاقتصاد بالقوى	٤٢
مخالفة مبدأ الامن	٤٣
احوال دولة الفرنج السياسية والعسكرية التي استقرت في فلسطين	٤٥

الفصل الرابع

الموضوع	الصفحة
ثورة دمشق وتحقيق الوحدة السورية الشاملة	٦٢
الوحدة بين سورية ومصر	٦٥
الاسباب الاستراتيجية والقومية التي فرضت الوحدة	٦٥
قرار الفرنج بمهاجمة مصر	٦٩
محاولة فك طوق الحصار الاقتصادي عن الفرنج	٦٩
الفصل الخامس	
كيف تحققت الوحدة بين سورية ومصر	٧٠
الفرنج يحاولون مهاجمة مصر لفك طوق الحصار الاقتصادي	٧١
تمسك مصر بعروبتها	٧٣
جيش الاقليم الجنوبي ينضم الى جيش الاقليم الشمالي لاحتلال القاهرة	٧٥
تعاون وزراء الفاطميين مع الصليبيين يكلفهم ارواحهم	٧٦
خطة نور الدين محمود للانتصار على الفرنج في مصر	٧٧
معركة البابين	٧٨
اجداد الرئيس جمال عبد الناصر ينجدون الجيش العربي السوري في معركة البابين	٨١
ثورة الاسكندرية انتصارا للعروبة	٨٢
نور الدين ينفذ الشطر الثاني من خطته	٨٢
الفرنج يمهدون لعقد حلف بيزنطي كحلف بغداد	٨٥
الفرنج يفقدون اتزانهم ويهاجمون مصر مرة ثالثة	٨٥
اموري يخدع نور الدين وشاور معاً لمفاجأة مصر	٨٦
بطولات سكان القاهرة في قتال الفرنج	٨٨
اذا زال دعاة الاستعمار زال الاستعمار نفسه	٩٠

فهرس الخرائط والمخططات

T

5

Bach

B

